

ماري سليسور



قدماً إلى كالا بار

بقلم
جانييت وچيوف بنج

قصص ملهمة لرجال ونساء استجابوا لدعوة الله

فتاة إيرلندية تترك الأطفال في الهند؟ شابة إنجليزية تتركز بالإنجيل في الصين؟

طيار أمريكي يخدم المرسلين في الإكوادور؟

سلسلة أبطال الإيمان : في الماضي والحاضر، تسرد القصص الواقعية المثيرة.

الملهمة والمؤثرة لرجال ونساء عاديين حققت ثقتهم في الله

إنجازات باهرة لملكوته ومجده.



ماري سليسور

(١٨٤٨ - ١٩١٥)



تأملت ماري سليسور في كلمات ديفيد ليفنجلستون « لا يهتمي أين

نذهب طالما كنا نسير إلى الأمام ».

أنا لا أسير للأمام بل أنا لا أتجه إلى أي مكان. إنني في السابعة والعشرين

من العمر. وأعمل في محلج للقطن اثني عشر ساعة يومياً. يا الله

أرسلني إلى مكان ما. أي مكان. فقط أرسلني لأصبح مرسل.

استجاب الله بالحقيقة لصلوات المرأة الملتهبة بالحماس ذات الشعر

الأحمر القادمة من اسكتلندا. فلمدة تسعة وثلاثون عاماً. بذلت ماري

تعب المحبة بين القبائل الغير مركز لهم، والتي تتسم طبائعهم بالشراسة، في منطقة كالا بار

الأفريقية. فأصبحت (الأم البيضاء) التي ترعى القبائل الداخلية في الأمراض، والأخطار، والموت

من كل جانب. إيمانها وثباتها وروحها الرائدة أعطوا لأحبائها المثال الأول للحياة المختلفة والحرية

التي يمكنهم أن يجدوها في المسيح يسوع.

قصة ماري سليسور هي القصة الأبدية لامرأة لم يوقفها شيء في وصولها بإنجيل المسيح للضالين.



أبطال المسيحية : في الماضي والحاضر

ماري سليصور

قدماً إلى كالأبار

بقلم
جاتيت وحيوف بنج



مكتبة المنار

Lighthouse Book Center
& Publishing House

Africa



Calabar



طبعة أولى يوليو ٢٠٠٤

MARY SLESSOR

ماري سليسور

Forward into Calabar

قدماً إلى كالابار

المؤلف: جانيت وجيوف بنج Janet & Geoff Benge

ترجمة: الشيخ بهيج يوسف

Published in Arabic:-

الناشر باللغة العربية:-

Lighthouse Book Center

مكتبة المنار

17, Murad El-Sherei st.,

١٧ ش مراد الشريعي

Saint Fatima, Heliopolis,

سانت فاتيما - مصر الجديدة

Cairo, Egypt .

Tel: (02)6395030

تليفون: ٦٣٩٥٠٣٠ (٠٢)

Fax: (202)2403848

فاكس: ٢٤٠٣٨٤٨ (٢٠٢)

رقم الإيداع : ٢٠٠٤/١٣٨٤٩

الترقيم الدولي : 977- 5674 - 97 - 2

www.lighthouseegypt.com

المحتويات

الصفحة	الفصل
٧	الفصل الأول: نائبة قنصل أو كويونج
١٣	الفصل الثاني: كان الأمر متروكاً لها
٢٩	الفصل الثالث: مأساة وعناء
٤١	الفصل الرابع: منصب شرفي
٥٥	الفصل الخامس: على أرض أفريقية
٧١	الفصل السادس: المهمة التي تنتظرها
٨٧	الفصل السابع: الكفاح المتواصل
٩٩	الفصل الثامن: أولد تاون
١١٣	الفصل التاسع: ضيفة شرف
١٢٩	الفصل العاشر: جاني
١٣٩	الفصل الحادي عشر: جريك تاون
١٥١	الفصل الثاني عشر: إلى إكينجي
١٦٥	الفصل الثالث عشر: هجر العادات القديمة
١٧٧	الفصل الرابع عشر: أمنا كلنا
١٩١	الفصل الخامس عشر: قدر ضئيل من المساعدة ..

٢٠٧ شيئاً فشيئاً	الفصل السادس عشر:
٢٢٥ فريدة من نوعها	الفصل السابع عشر:

الفصل الأول

نائبة قنصل أوكونونج

كانت شمس غرب إفريقيا الحارة تضرب الساحة القائمة على مشارف القرية - والوقت منتصف الظهيرة، وكانت قد بدأت جلسة للاستماع في المحكمة منذ الصباح ومازالت مستمرة، وجسد (أوكونونو) شبه العاري يلمع في الشمس وهو لا يزال يحتج بشدة عن السبب الذي يجبر شقيق زوجته على سداد المبلغ الذي اقترضه منه.

وكانت نائبة قنصل (أوكونونج) تجلس القرفصاء في ظل شجرة الكابوك الضخمة تصغي إلى المناقشة وهي تعمل بيديها في ابر التريكو بمهارة، ويبدو أن شغل التريكو كان مهدئاً لها وللجمهور الذي تجمع لمشاهدة ما يجري.

استمعت نائبة القنصل فعلاً إلى أوكونونو وهو يدلي بأقواله للمرة العشرين على الأقل - كما استمعت إلى شقيق زوجته وهو يفندها وينكرها كل مرة، وكانت تستطيع أن تترك أن الرجلين قد بدءا يرهقان من كثرة الكلام، وسرعان ما سيأتي دورها لتصدر حكمها - فلقد علمتها التجارب أنه من المهم بالنسبة لأطراف القضية أن يتحدثوا عنها إلى أن يصلوا إلى حد عدم

القدرة على الكلام مرة أخرى. ويصبحوا مستعدين للإصغاء إلى ما نقوله هي.

أدهش (ماري سليسور) - المرأة الاسكتلندية ذات العيون الزرقاء والشعر الأحمر التي كانت تعمل كنائبة للقنصل - أنها كانت الوحيدة التي يمكنها أن تنتهي وتقضي مثل هذه المنازعات. وأن أناساً كثيرين كانوا يأتون لمشاهدة هذه الجلسات.

عندما وصلت ماري سليسور إلى مقاطعة أوكويونج لأول مرة منذ عدة سنوات كان الناس يهربون منها في رعب إذ لم يكونوا قد شاهدوا قبلاً امرأة بيضاء وحسبوا شعرها الأحمر علامة على أن رأسها كانت تشتعل بالنار، ولكن بمرور الأعوام كسبت ماري إلى صفها معظم الشعب في منطقتها وأصبح الناس يدعونها الآن (الأم البيضاء) وصاروا يجتمعون حولها بدلاً من الهرب منها، فلم يعمل أحد قط على تغيير العادات القديمة القاسية وغير الإنسانية والممارسات التي كانت تبث الرعب في حياة الشعب السنوات الطويلة، مثلما عملت الأم البيضاء.

ركزت (ماري) إنتباهها في القضية: لقد كان زوج أخت أوكويونو الآن يجمع الأدلة ضد أقوال أوكويونو. وحن الوقت لأن تبدأ ماري التفكير في إصدار حكمها. لقد توصلت فعلاً إلى قرار وأصبح جاهزاً حقاً - لكن ماري كانت لا تزال لديها أمور

قليلة لتفكر فيها - كانت مغناظة من أن يجر أوكويونو أخو زوجته إلى المحكمة، بينما هو نفسه أهمل أطفاله وكان يُسر بأن يضرب زوجاته بانتظام وخاصة تلك التي كانت أخت الرجل الذي جره إلى المحكمة.

وكان أكثر ما ضايق ماري أن أخو الزوجة كان رجلاً مجتهداً في عمله وقد أصابه بعض سوء الحظ - كانت القضية واضحة وبسيطة - كان أخو الزوجة مديناً ببعض المال لزوج أخته ويجب عليه أن يرده له، وكما أن ماري كانت مهتمة بتحقيق العدالة بمعناها الواسع فإنها كانت تفهم أن الديون يجب أن تسدد، وكذلك الشعب في حاجة لإدراك أنه ليس من المناسب أن يهملوا أطفالهم ولا أن يضربوا زوجاتهم.

جلست ماري تعمل بيديها في خيوط التريكو بهدوء وهي تستمع وتقلب الفكر فيما يجب عليها عمله، وبعد بضع دقائق ألقت جانباً بشغل التريكو ووقفت على قدميها وهي تنتظر إلى شقيق زوجة أوكويونو في عينية مباشرة وقالت: "أنا أرى أنك مذنب، وأمرك أن تدفع إلى أوكويونو المبلغ الذي أنت مدين له به."

وإذ أحبط أخو الزوجة لخسارة قضيته نكس رأسه، وفي نفس الوقت زحفت على وجه أوكويونو ابتسامة عريضة - لكن

ماري كانت لديها مفاجأة له إذ تكلمت مرة أخرى إلى أخو الزوجة قائلة: "كما أمرك أن تجلد أوكوبونو جلدة واحدة هنا والآن، وأن تتأكد أنها تكون جلدة قاسية وإلا فإنني سأحكم عليك بغرامة إذا أنت تهاونت في جلده." وسرعان ما حلت نظرة صدمة محل الإبتسامة التي كانت على وجه أوكوبونو وفي نفس الوقت ظهرت نظرات الرضا على وجه الحاضرين في المحكمة.

لقد كان هذا هو العدل - لقد فهمت الأم البيضاء طرقهم بحق. وجمعت ماري - إذ انتهت واجباتها كنائبة للفنصل لهذا اليوم - شغل التريكو الخاص بها ووضعته في حقيبة - فقد حان وقت الأكل، ثم بعد ذلك المشاركة في المزيد من إجتماعات درس الكتاب المقدس مع أهالي القرية .. وفي صباح اليوم التالي ستبدأ ماري - مرة أخرى - في العودة إلى (إكينجي) القرية التي تعيش فيها.

فإذ جلست في تلك الليلة بجوار النار وهي تأكل سلطانية من القمح المشوي، تساءلت في نفسها عما يمكن أن يفكر فيه الناس عند محلج باكستر للقطن في (داندي) باسكتلندا لو أنهم رأوها الآن، يحتمل أنهم سوف يذهلون لبقائها على قيد الحياة كل تلك المدة في مثل هذه البيئة الصعبة خاصة وأن مراسلات أخريات

كثيرات قد توفين في ظرف سنوات قليلة من الوصول إلى (كالابار) - وربما تعجبوا من حقيقة أن البنت ذات الأحد عشر ربيعاً التي كانت تعمل في الحلج قد أصبحت الآن نائبة للفنصل وهو المركز الإداري الوحيد في القانون البريطاني في مقاطعة أوكويونج.

بالطبع لم تكن ماري في الماضي تعتقد أن هذا ممكن، ولكن ها هي الآن هكذا - ولا شك هناك في الأمر - فقد كبرت كثيراً عن وضعها كفتاة صغيرة تعمل في المحلج، والحق أنها تشعر الآن أنها في مكانها الطبيعي المناسب وليس كما كانت بين أهلها في اسكتلندا، بل إنها الآن تشير إلى الأفارقة على أنهم أهلها وهم أيضاً يشيرون إليها على أنها (أما كلنا) إنه طريق طويل وبعيد عن الحياة في داندي.

الفصل الثاني

كان الأمر متروكاً لها

وقفت ماري سليسور ذات الأحد عشر ربيعاً عند باب المنزل الوحيد الذي عرفته طول حياتها، تراقب إحدى الجارات وهي تطرح جانباً مائدة المطبخ التي تم بيعها لتوفير التمويل اللازم لانتقال الأسرة إلى مدينة داندي في اسكتلندا - وقالت أمها وهي تربت على خصلة شعرها الأحمر اللامع المجعد: "لا تقلقي من الرحيل يا ماري فكل الأشياء ستتحول للأفضل وتعطي لوالدك بداية جديدة .. وستكون هناك فرص عديدة لك في داندي وربما استطعت أن تذهبي إلى المدرسة هناك."

لمعت عينا ماري وقالت: "سيكون ذلك أمراً رائعاً، هل تعتقدين حقاً أنني سأذهب هناك إلى المدرسة؟"

قالت الأم: "ما أن نستقر جميعاً هناك ويحصل والدك على وظيفة دائمة، فأنا لا أرى ما يمنع من ذلك .. ولم لا؟ والآن أركضي وطبقي الملاءات .. هل تفعلين؟ .. إنني أفكر في وضعها في قاع الخزانة."

قفزت ماري في سعادة من أمام باب الكوخ إلى حجرة النوم الصغيرة التي تشترك فيها مع إخوتها الأصغر سناً - أما أخوهم

الصغير (جون) فكان ينام في الطابق الثاني فوق المطبخ حتى سنة واحدة مضت حين غدا ضعيفاً ومات - أما (روبرت) الأخ الأكبر فكان ينام في الطابق العلوي أيضاً وبموته أصبحت ماري هي أكبر أطفال روبرت وماري سليسور اللذان تسمى الابنان الأكبر على اسمهما.

وصارت ماري تفكر وهي تطبق الملاءات فيما قالتها أمها وتساءلت عما إذا كانت الأمور ستكون في داندي أفضل مما هي عليه في (جيلكومستون) بالقرب من أبردين حيث كانوا يعيشون. لم تذهب ماري قط إلى أبعد من عشرة أميال عن منزلها، ولكن صديقتها هيلين ذهبت ثم أخبرتها بكل شيء عن المدن في الأراضي المنخفضة في اسكتلندا - كانت المباني هناك معتمدة بشكل واضح ومتلاصقة ويكاد يكون من المستحيل التنفس فيها بسبب الدخان الكثيف المتصاعد من المصانع التي تتعلق وسط السحب السوداء الجاثمة فوق المدن.

وقد بدا هذا رهيباً بالنسبة لـ ماري وليس أفضل بأي شكل من الحياة في (أبردين) حيث كان الريح يصفق خلال الأراضي المرتفعة عند الخليج ثم يعود فينزل إلى المدينة. ولكن فكرت ماري أن الأمور في داندي لا بد أنها ليست بمثل هذا السوء الذي تقول عنه هيلين وإلا فلماذا تتلهف أمها على الذهاب إلى هناك؟

كانت ماري تعرف جزءاً من الإجابة عن هذا السؤال. إنه بسبب أن والدها - ذلك الرجل القوي ذو الشعر الأحمر المجعد الذي قص عليها أروع القصص والذي تسمع ضحكته في كل أرجاء المنزل وذلك حين يكون منتبهاً أما حين يكون ثملاً فإنه يتحول إلى وحش يصرخ ويصيح ويندفع يضرب زوجته وأطفاله .. ومؤخراً أصبح يسكر مرات كثيرة وعلمت ماري أن هذا له علاقة بعمله كصانع أحذية حيث كان يعاني من ضائقة - كانت مستيقظة ذات ليلة وسمعت والدتها وهي تلح في الرجاء أن ينتقل بالأسرة إلى داندي حيث يمكنه الحصول على وظيفة ثابتة دائمة في أحد المصانع الحديثة هناك.

شرحت السيدة سليسور لـ ماري - في عدة مناسبات - أنه في عصر الآلات هذا فإن الأموال الضخمة يمكن الوصول إليها في المدن بالعمل في المصانع الحديثة التي تبرز بسرعة هناك، وليست في المجتمع المتأخر حيث تصنع الأحذية يدوياً. كانت السنة ١٨٥٩ - وأي إنسان يعيش في اسكتلندا - كما أصرت دائماً - يجب أن يستفيد من موجة التصنيع التي تجتاح المنطقة. كانت ماري تريد أن تعتقد أن الانتقال إلى داندي سيكون تغييراً للأفضل وترجو أن يتوقف أباهما عن شرب الخمر ويحصل على وظيفة ذات أجر ثابت ومنتظم وتمنت أيضاً أن

تتمكن من الذهاب إلى المدرسة وتتوق إلى أن تكون قادرة على القراءة والكتابة.

وحالما انتهت من تطبيق الملائات سمعت صوت هرج خارج الكوخ مع صهيل أحد الجياد، فاندفعت خارجة لترى الجواد والعربة الكارو التي ستأخذهم في رحلتهم إلى الساحل - إلى داندي.

وبعد يومين اكتشفت ماري أن داندي هي كل ما قالته عنها هيلين بل وأكثر. فلقد احتشدت الأسرة في شقة قذرة ذات غرفتين في الدور الثاني من مبنى سكني كبير في (شارع الملكة) في قلب أحد الأحياء القديمة في داندي وكان الهواء تماماً كما قالت هيلين شديد الكثافة ملبد بالدخان الأسود الذي يغطي الغسيل الذي علقته السيدة سليسور من الشباك لكي يجف - وكثيراً ما كان الغسيل يبدو أكثر قتامة بعد غسيله عما كان عليه من قبل.

ساعدت ماري والدتها في كنس وتنظيف الغرفتين، لكن كان هناك أمران أمران لم تستطعا أن يعمل شيئاً حيالهما: الأول كان الفئران التي كانت تمرح على أرض الشقة وكان من العبث محاولة إمساكها أو قتلها فإن المئات الأخرى من الفئران كانت تعيش في الشوارع الموحلة على أتم استعداد لتحل محل أي فار

تحاول ماري أو أمها قتله - والأمر الثاني الذي لم تكونا تستطيعان عمل شيء حياله هو الرائحة النتنة التي تتصاعد خلال المبنى من الشارع تحته وهي خليط من روائح المجاري والقاذورات المخمرة. وكانت الرائحة في الأيام الدافئة فظيعة لدرجة أن السيدة سليسور كانت تحتفظ بالنوافذ مغلقة - فقد كان من الأفضل تحمل الحرارة من أن تفتح النوافذ وتتعامل مع الروائح الكريهة.

ورغم أن موقف السكن العائلي كان فظيماً إلا إن ماري قالت لنفسها أنه لا يهم طالما أتيحت لوالدها وظيفة - وشغلت السيدة سليسور نفسها بترتيب الشقة والعناية بالأطفال بينما بدأ زوجها يعمل مع صانع أحذية آخر، وكانت الراحة بالنسبة لـ ماري أن يعود والدها إلى بيته في المساء خالياً من رائحة الخمر، وكانت تسعد بصفة خاصة عندما بدأ والدها يتحدث عن نقل الأسرة إلى كوخ وإرسال الأطفال الكبار إلى المدرسة. الأمر الذي كان سيتم بمجرد توفر الأموال اللازمة - كما أكد لهم الوالدان.

لكن للأسف فإن التغيير الذي حدث للوالد لم يستمر لأكثر من شهر واحد تقريباً. ففي ليلة أحد أيام الأحاد - بعد حوالي خمسة أسابيع من انتقالهم إلى داندي عاد روبرت سليسور إلى

منزله متأخراً جداً وثملاً للغاية - كانت زوجته قد تركت له عشاءه من البطاطس على المائدة، ولكن بمجرد عودته للبيت سمعت ماري صوت والدها وهو يقذف طبق الطعام إلى الحائط وهو يلعن لأن الطعام كان بارداً.

وملأت الدموع عيني ماري وهي مستلقية على فراشها في سكون بين أختيها وقد شعرب بألم في معدتها من الجوع وهي تفكر في قطع اللحم التي كانت أمها قد وضعتها بعناية جانباً في طبق الوالد، ها هو الطعام الآن كتلاً مبعثرة على الحائط - وكان عليها أن تزيلها في الصباح بلا شك.

واستمر الصباح وقتاً طويلاً وانتهى أخيراً ونامت ماري وفي الصباح استيقظت على صوت والدها وهو يشخر بصوت مرتفع في الغرفة الأخرى - وتوالت أحداث الليلة السابقة على تفكيرها وسرها أن اليوم كان يوم أحد فعلى الأقل كان عليها هذا اليوم أن تذهب إلى الكنيسة مع أمها وأخوتها.

كانت ماري تحب حضور كنيسة أوشارت التذكارية وبصفة خاصة مدارس الأحد بها إذ كانت تستمتع بالقصص التي يرويها القسيس وتقارير الإرساليات التي تسردها سكرتيرة الكنيسة وتصف فيها ما كان يحدث في كالابار - وكانت ماري تعرف كل شيء عن كالابار من قصص الإرسالية التي تقرأها والدتها

للأطفال من سجلات الإرسالية.

كانت نشرات الأخبار الخاصة بإرسالية الكنيسة المشيخية المتحدة باسكتلندا. وكانت كالابار منطقة في غرب أفريقيا حيث كانت الكنيسة المشيخية قد أسست إرسالية في عام ١٨٤٦ قبل أن تولد ماري بعامين فقط - وكانت ماري تستطيع أن تصل إليها على الخريطة في نفس المكان حيث ينثني شاطئ أفريقيا إنتشاء حادة إلى الغرب.

بالنسبة لـ ماري سليسور التي تجلس منتصبه وطويلة على البنك الخشبي العتيق أحداً بعد أحد - كانت كالابار هي شيء مختلف تماماً عن داندي - كان شيئاً مثيراً وغريباً - كان شقيق ماري الكبير روبرت قد فكر كذلك أيضاً - واستعادت ماري كيف كانا معاً كأطفال صغار هناك في (جيلكومستون) يلعبان لعبة الكنيسة معاً - كان روبرت يقول لها دائماً: "عندما أكبر يا ماري سأصير مرسلًا - أتعرفين ماذا؟ - وسأخذك معي". وكانت ماري تضحك دائماً وتجيب: "هذه خطة ظريفة يا روبرت وسأكون مسرورة أن أكون مساعدة لك." - ولكن روبرت قد مات، لكن ماري علمت أن والدتها كانت تحتفظ في قلبها بآمال تتلخص في أن يصبح جون هو مرسل العائلة وبذلك ماري كل طاقتها لكي تحثه وتحمسه للذهاب إلى كالابار.

وذات مساء أحد أيام الآحاد - أثناء عودتهما من الكنيسة - سارت السيدة سليسور وماري معاً في خطوات متناسقة - كان الأطفال الأصغر سناً قد ساروا في المقدمة وهم يقفزون فوق الشقوق التي في الطريق الجانبي وتكلمت السيدة سليسور بسرعة قائلة: "أحتاج يا ماري أن أتكلم إليك بمفردك - دعينا نصحب الأطفال إلى المنزل ثم نعطيهم بعض الطعام ليأكلوا وبعدها نخرج سوياً لنتمشى قليلاً، فإن والدك لابد أن يكون مستيقظاً الآن ويستطيع أن يلاحظ الأطفال." شددت ماري الشال حول كتفها وحاولت أن تتخيل ما أرادت أمها أن تقوله لها، وقد بدت جادة تماماً كما لو كانت تتحدث إلى شخص بالغ آخر.

حبست ماري أنفاسها عندما وصلت إلى الشقة وانتظرت من الأم أن تطلب إلى أبيها أن يلاحظ الأطفال، وافق الوالد على مضض. وانسحبت ماري وأمها خارجتين وتركتا المبنى وبدأتا السير في شارع الملكة وابتدأت السيدة سليسور في الحديث قائلة: "ماري أن لديّ آمالاً عريضة بالنسبة لنا جميعاً منذ تحولنا إلى داندي وقد وعدنا والدك أن يتوقف عن شرب الخمر ويحصل على وظيفة مناسبة لكن.." تهتت بعمق ثم استأنفت: "بعد ما حدث الليلة الماضية فإن ما قاله لن يحدث فإنه أخبرني أنه قد طرد من عمله لأنه تصرف بوقاحة مع رئيسه، ولست

أعتقد أنه سيتمكن من الحصول على أي وظيفة لأن الكحول قد تمكن منه تماماً."

مدت ماري يدها وأمسكت بيد أمها وهما ما زالتا سائرتين واستمرت السيدة سليسور تقول: "لقد تكلمت مع السيدة (شوندي) - المقيمة في الشقة المجاورة لنا وهي تعمل في محلج باكستر وتقول أنهم يستأجرون النساء - ولأنني لديّ خبرة في هذا المجال فسأقدم بطلب للحصول على وظيفة هناك غذاً عليك أنت أن تبقى في المنزل وتعتني بالآخرين."

ضاع صوتها وهي تقف لتتنظر إلى وجه ابنتها ذات الأحد عشر ربيعاً وقالت: "آه يا ماري العزيزة - لم أكن أقصد أبداً أن تسير الأمور هكذا." وأخذت تبكي في هدوء: "كنت أريدك أن تذهبي إلى المدرسة وتتعلمي فإن لك عقلاً لمأحاً، ويكسر قلبي أن أراه يضيق بلا فائدة." قالت ماري لأمها بلطف وهي تشعر أنها أكبر من سنواتها الأحد عشرة: "كل شيء على ما يرام، وسنجد طريقة للتوفيق بين الإثنين وسأذهب إلى المدرسة في يوم من الأيام ولن تضيق الفرصة. كل شيء سيكون على ما يرام يا أمي."

سارت أمور كثيرة أخرى على غير ما يرام في الأشهر القليلة التالية، ففي خلال أسابيع قليلة متتابعة مرضت أختها

الصغيرتان بالدفتريا وماتتا .. وقد لامت ماري في قلبها والدها على موتهما، فلو أنه كان قادراً على الاحتفاظ بوظيفته لاستطاعوا أن يعيشوا في كوخ على مشارف المدينة الآن بدلاً من حشرهم في وسط داندي حيث كان الهواء فاسداً والشمس لا تكاد تظهر من بين المباني الرمادية المتراسة. ورغم وفاة أختها فقد استمتعت ماري بكونها أم صغيرة للأسرة.

كان جرس الاستيقاظ يسمع من الملحج في الساعة الخامسة صباح كل يوم فتقوم ماري مع أمها لكي يحصلوا على رشفة من الشاي معاً قبل أن تتركها الأم للعمل، وكان الوالد يرافقهما أحياناً لكن في الغالب لا يفعل لأنه يكون نائماً بعد ليل من الشرب الكثير.

مضت الأمور هكذا مدة حوالي ستة أشهر حتى جاء يوم في أوائل عام ١٨٦٠ عندما استيقظت ماري مبكراً لتسمع أمها وهي تتحبب في وسادتها في هدوء. زحفت ماري إلى حجرة المعيشة حيث كان ينام أبواها ووجدت أمها في الفراش وحدها وسألت أمها في هدوء: "ماذا حدث يا أمي؟"

استدارت السيدة سليسور لتتظر إلى ابنتها وكتمت نحيبها وقالت: "ليس لدي مال لسداد الإيجار ولا أعلم ماذا أفعل، لقد وجد والدك المبلغ الذي كنت قد احتفظت به تحت البلاط لسداد

الإيجار، فأخذته وأنفقه كله. على الكحول .. وإن كان المبلغ في حقيقته لا يسد المطالب وعلى أي حال كنا سنصل إلى هذه الحالة في النهاية. فالمبلغ الذي أحصل عليه من عملي لا يكفي لإعالتنا جميعاً وأبوك لا يستطيع أن يحصل على عمل إلا ويمضي ليسكر بما يحصل عليه." وضعت وجهها بين يديها ثم قالت: "أوه يا ماري ماذا سنفعل؟" ومضت تبكي.

غاص قلب ماري فقد كان يمكنها أن ترى كل شيء بوضوح - أبوها بعيد في إحدى الحانات يسكر وأخوها الأكبر ميت - وبقيت هي وأمها للمحافظة على بقية الأسرة معاً - أجابت ماري قائلة: "سأحصل على عمل، ويمكنني أن أقتاضي أجراً مثل أجرك، وإذا وضعنا أموالنا معاً فسنكون قادرين على المضي قدماً. ألا تعتقدين ذلك؟"

مدت السيدة سليسور يديها واحتضنت ابنتها قائلة: "سأحاول مع المدير أن أدبر الأمر لك بطريقة ما كما سترين - والآن لا بد أنك تشعرين بالبرد، تعالي ونامي معي، وسيكون على والدك أن يبقى مع الأطفال الأصغر سناً ويذهب إلى الحانة بعد عودتنا إلى البيت من العمل."

تسلقت ماري واندست تحت البطانية الخفيفة مع أمها. قالت الأم: "هناك شيء واحد جيد." تساءلت ماري بضعف: "وما هو؟"

قالت الأم: "لقد افتتح المحلج مدرسة للعاملات الصغيرات، وحيث أنك في سن الحادية عشرة فقط فسوف يجعلونك تعمل في أوقات الصباح ويسمحوا لك بحضور المدرسة في المساء. والعكس في اليوم التالي".

ظلت ماري مستلقية على الفراش وقد فتحت عينيها عن آخرهما (مدرسة) إنها ستذهب إلى المدرسة "آه يا أمي" ومدت يديها لتحضن أمها وهي تقول: "أستطيع أن أحتمل أي شيء لو أنني فقط تعلمت القراءة." فاحتضنتها أمها بقوة وراحت أخيراً في النوم.

في الصباح التالي ملأت السيدة سليسور سلتين للغداء وشرعت الأم والإبنة معاً في الذهاب إلى العمل قبل شروق الشمس، وعند بوابة المحلج توقفت السيدة سليسور لتتحدث مع امرأة أخرى إفترضت ماري أنها واحدة من المشرفات وقد كانت كذلك، فبعد دقيقة أو اثنتين أشارت أمها إليها وقالت: "ماري" واستدارت لتواجه ابنتها وقالت: "هذه هي السيدة دوجان إذهبي معها وهي ستريك ما تفعلين، ستعملين هذا الصباح وفي المساء ستأخذك ابنتها معها إلى حجرة الدراسة."

ابتسمت السيدة دوجان ابتسامة بدون أسنان لماري وأشارت لها أن تتبعها. ودخلتا في باب في الطرف الأقصى من المبنى

الضخم المشيد بالطوب وسلم أحد الرجال إلى ماري بطاقة تحمل بعض الأوقات وكانت تستخدم لتبين مواعيد العمل. فشكرته ماري فقال لها: "دعينا نرى إذا كنت - عند خروجك من المكان الليلة - سوف تظلين شاكراً لي أم لا."

كان الصوت داخل المبنى يصم الأذان - كان ضجيج خبطات الآلات يتردد في أكبر حجرة رأتها عينا ماري طوال عمرها. أشارت السيدة دوجان إلى حفرة صغيرة حيث كانت ماري تستطيع أن تضع كيس غائها وقالت لها: "أتركي شالك ومعطفك هناك أيضاً يا فتاتي فالعمل هنا حار وبالتأكيد قد أخبراك بذلك فعلاً."

سارت ماري والسيدة دوجان معاً إلى إحدى الآلات الضخمة الموجودة في الحجرة وقالت السيدة دوجان: "سأقوم بشرح هذا لك مرة واحدة فقط، لذا فمن الأفضل أن تصغي إلي جيداً - عليك أن تسرعي لتصبحي عاملة بالقطعة، ويبدو أن جسمك يناسب ذلك لكونك صغيرة القد."

مسحت ماري جبينها وحاولت أن تركز على ما كانت السيدة تقول، وقد بدأ رأسها بالفعل يدور فقد كان المكان حاراً جداً في الحجرة وكانت أمها قد حذرتها بأن أصحاب المحلج كانوا يحبون أن تكون درجة حرارة المحلج من الداخل ما بين ثمانين وتسعين

درجة فهرنهايت لأنهم كانوا يعتقدون أن ذلك يجعل نوعية النسيج القطني الذي ينتجونه أفضل. لكن الجو كان أسخن من أي شيء آخر كانت ماري قد اختبرته من قبل - أخذت ماري نفساً عميقاً فإن العمل سيكون صعباً في مثل هذه الحرارة لعدة ساعات، ووجدت نفسها - في الحال - تتوق إلى ساعة الغداء عندما يسمح لها - كما قالت لها أمها - بالجلوس على أريكة في الخارج.

كانت وصفاً عاملة القطعة بسيطة يسهل شرحها، وقد استغرقت السيدة دوجان أقل من خمس دقائق في ذلك. كان على ماري أساساً أن تسير أو تزحف جيئةً وذهاباً بين بكرات آلة النسيج محاولة ربط الخيوط معاً فوق إطارات الغزل عندما تنقطع وكانت نوعية النسيج المنتج تعتمد على الخيوط القوية. وعلى كل حال كانت العملية أصعب بكثير عند التنفيذ منها عند الاستماع إليها. فقد كان على ماري أن تظل تجري من أحد الخيوط المقطوعة إلى آخر وإذا لم تسر بسرعة كافية كانت العاملة التي تشغل الآلة تضربها على رأسها بيدها - وفي مرات أخرى كان على ماري أن تزحف تحت الآلات لتصل إلى الخيوط التي في القاع بحيث تكون قريبة من الآلات التي تنبض لدرجة الخطر، وفي ظرف ساعة أو اثنين كانت ترهق. لم

تندھش قط حين علمت من إحدى الفتيات الأكبر سناً أن العاملة بالقطعة كثيراً ما كانت تمشي أو تزحف مسافة عشرين ميلاً في اليوم بين آلات الغزل.

عندما نفخ في صفارة الغداء عند الظهر التقطت ماري شالها ومعطفها وكيس غذائها واتجهت إلى الباب حيث قابلتها موجة من الهواء البارد فجاهدت في وضع معطفها عليها بينما كانت أصابعها تؤلمها من الجروح الصغيرة التي أصابتها بسبب الخيوط المشدودة التي كان عليها أن تربطها - كما كانت قدمها مجهدتان جداً لدرجة أن كل خطوة كانت تتم بمجهود.

إرتمت على أريكة خشبية وأراحت ظهرها على الطوب الخشن الذي بنيت به جدران المصالح وفوق رأسها كان دخان أسود كثيف يندفع في الهواء .. وتكلمت عاملات أخريات مع بعضهم لكن ماري كانت مجعدة جداً بحيث لم تستطع أن تتضمن إليهن.

وما أن انتهت من أكل غذائها حتى ذهبت ماري لتبحث عن السيدة دوجان التي كانت جالسة وسط مجموعة من السيدات الأكبر سناً يضحكن على إحدى الطرائف - وانتظرت ماري بأدب إلى أن تلاحظها السيدة دوجان. وأخيراً لاحظتها فسألتها: "كيف سار يوم عملك الأول يا حبيبتي." .. ابتسمت ماري

وقالت: "حسناً - شكراً لك" وكانت سعيدة أن انتهى يوم عملها الأول. قالت السيدة دوجان دون أن تتحرك من مكانها الذي كانت تجلس فيه: "أعتقد أنك تنتظرين جانيت لكي تريك حجرة الدراسة. دقيقة واحدة وسوف أناديها لك." صاحبت السيدة دوجان فوق الطنين المحيط بها: "جانيت تعالي هنا فعندي فتاة جديدة أريدك أن تقابلها."

انتظرت ماري إذ سارت فتاة طويلة ذات شعر أسود إلى حيث كانتا واقفتين. وبعد نصف ساعة كانت ماري جالسة في مقعد تحمق في السبورة، كانت الحجرة طويلة وضيقة والإضاءة ضعيفة جداً حتى أن ماري كان عليها أن تدقق النظر لترى ما كانت مدرستها تكتبه - كانت المدرسة تشرح الجدول الأسبوعي الذي كان يتضمن القراءة والكتابة والحساب والترنيم والخياطة وشغل الإبرة والجغرافيا.

برقت عينا ماري وهي تنصت .. إنها تستطيع احتمال العمل نصف الأيام في المصنع الحار طالما أنها ستذهب إلى المدرسة النصف الآخر من اليوم. وإذ كانت تعود إلى البيت كل مساء وهي مرهقة فلم يكن ذلك مهماً. فإنها كانت تتعلم القراءة والكتابة وهذا جعل لكل شيء قيمة.

الفصل الثالث

مأساة وعناء

كان الوقت بعد الظهر في أحد أيام الأحاد الموحشة الرطبة، ليس بعد أن بدأت ماري العمل في المحلج بكثير، وكان يوم راحتها الأسبوعي وقد أمضت فترة ما بعد الظهر وهي تسير مع ثلاثة فتيات أخريات من ساكنات المبنى الذي تقيم فيه، وتخطين أحد المنازل في آخر شارع الملك عندما جاءت امرأة عجوز خارجة لتحيتهن، تعرفت عليها ماري فلقد كانت إحدى عضوات الكنيسة.

قالت المرأة: "أهلاً يا بنات" ثم تطلعت إلى ماري وسألته: "ألسنت أنت إينة سليسور الصغيرة التي تذهب إلى كنيسة وبشارت التذكارية؟" أجابتها ماري: "نعم يا سيدتي" - فقالت المرأة: "حسناً .. لماذا لا تدخلين لفترة وتحضري صديقاتك معك. يبدو أنكن تشعرن بالبرد الشديد. فلدي مدفأة ونار مشتعلة وقد أخرجت لتوي مجموعة من الفطائر الطازجة من الفرن. كيف يبدو ذلك بالنسبة لك؟"

نظرت ماري إلى البنات الأخريات وكانت تعلم أنهن ربما لم يكن مهتمات بزيارة المرأة العجوز أكثر من اهتمامها هي، لكن

كان من الصعب تجاوز النار الدافئة والفطائر الطازجة .. وأخيراً قالت ماري: "حسناً، يمكننا أن ندخل لكن لمجرد لحظة - فإن أُمي ستكون منتظرة وصولي إلى البيت الآن." كانت نار حارة مشتعلة تطفق في المدفأة، وسرعان ما كانت الفتيات الأربع ملتفات حولها وهن يأكلن الفطائر ويشربن الشاي الساخن اللذيذ.

سألت المرأة العجوز ماري عن ما تعلمته في مدرسة الأحد هذا الصباح فأخبرتها ماري ثم انحنت المرأة لأسفل وحركت النار بعضاً فاشتعلت النار وتناثرت الشرارات إلى المدخنة - جلست المرأة فجأة وهي تستند في مقعدها وغيّرت إتجاه الحديث فنظرت إلى ماري مباشرة وقالت: "أنت تعرفين يا فتاتي أنك إذا كنت تضعين يدك في تلك النار فسوف تشوي بالكامل ويصيبك ألم فظيع."

أومأت ماري برأسها في أدب وهي تتساءل ما إذا كانت المرأة العجوز مجنونة - وقبل أن تقرر، مضت المرأة العجوز في حديثها: "إن الكتاب المقدس يخبرنا أن الجحيم يشبه هذه النار، تحرق للأبد وأن أولئك الذين لا يقبلون الرب يسوع المسيح سيمضون أبديتهم فيها. وستشوي أجسادهم وتجف حلوقهم ، ولن يكون هناك طريقة للخروج ولا نهاية للعذاب -

هل تريدان أن تحترقي في الجحيم يا فتاتي؟" هزت ماري رأسها إثر الوصف الذي أعطته المرأة العجوز. فمن يرغب في الحرق في الجحيم وهو بكامل عقله ووعيه؟ وفي نفس الوقت شعرت ماري شعوراً غير متوقع بالرعب يجتاحها. وارتعبت خوفاً من أن تنتهي إلى الجحيم ولا ترى روبرت وإخوتها مرة أخرى.

استمرت المرأة العجوز قائلة: "حسناً، عليك أن تتوبي عن خطاياك وتطلب من الرب الطيب أن يغفر لك. هل تريدان أن تفعلين ذلك؟" أومأت ماري برأسها، ناسية أن صديقاتها كن في الحجرة وكل ما استطاعت أن تراه هو الوجه البرتقالي اللامع للنار - فقالت أخيراً: "سأفعل" وكانت تعني ما تقول.

قادت المرأة العجوز ماري في صلاة بسيطة. وسرعان ما تركت الفتيات منزلها، وأثناء سيرهن عائدات إلى مبنى سكنهن في المطر، كن جميعاً مرتبكات جداً بسبب ما قالته السيدة العجوز.

ولشدة عجبها شعرت ماري وهي مستلقية في الفراش في تلك الليلة بسلام أكثر مما يمكنها أن تتذكره من قبل - لقد كانت فكرة الجحيم هي التي أقنعتها أن تصلي، وها هي الآن لم تعد تشعر بالخوف من أن تنتهي هناك - لكنها شعرت بشيء آخر

أيضاً، كان لديها شعور رائع بأن الله كان يراقبها وأن الأمور سوف تعمل لصالحها بطريقة ما.

في يوم الأحد التالي أخبرت ماري المشرفة على مدرسة الأحد أنها قد صلت لتقبل يسوع المسيح في قلبها وسألت ما إذا كان هناك بعض الوسائل التي يمكن أن تساعد بها في الكنيسة. اقترحت المشرفة عليها أن تساعد بتعليم أحد فصول مدرسة الأحد للأطفال الصغار، المهمة التي قبلتها ماري بحماس عظيم. إيمان ماري جعلها سعيدة لكل ما تتعلمه في مدرسة الملح، وسرعان ما أصبحت قادرة على قراءة فقرات من الكتاب المقدس بالإضافة إلى كتب القصص، وكانت تحب - بصفة خاصة - أن تقرأ قصص الإرساليات بل وأحبت أكثر من كل شيء آخر أن تقرأ عن ديفيد ليفنجستون، رائد الإرساليات في الجنوب الأفريقي، وكلمها قرأت المزيد عن ليفنجستون كلما وجدت نفسها تتمثل بشخصيته - لقد كانت هناك أوجه شبه كبيرة بينهما، فقد كان دافيد ليفنجستون من اسكتلندا وكان الابن الثاني في أسرته التي بها سبعة أطفال - ومثله مثل ماري كان قد عمل في ملح القطن كصبي.

لكن كانت هناك بعض الفروق الكبيرة بينهما أيضاً، فقد كان ديفيد ليفنجستون رجلاً وكان الرجال يعيشون حياة مغامرة أكثر

جداً من حياة النساء، كما كان ليفنجستون شخصاً ذكياً لماحاً قد درس وأصبح طبيباً لكي يصبح له خبرة عملية يقدمها لأهل أفريقيا، ولم تكن لدى ماري خبرات أو مهارات يمكن أن تفيد أحد. حقاً لقد كانت تستطيع أن تربط الخيوط على آلة النسيج لكن هذه كانت مهارة لا يحتمل أن تكون ذات فائدة في حق الإرسالية.

تنهدت ماري وهي تقرأ عن ديفيد ليفنجستون، لربما كانت حياتهما قد بدأت بدايات متشابهة لكنها لن تستطيع قط أن تعمل ما عمله ليفنجستون. كانت ماري فتاة ولم تكن النساء تعملن أشياء مثل هذه الأعمال. لذلك قرأت ماري عن ديفيد ليفنجستون لأخيها جون الذي كان الآن قد أصبح هو الآخر مؤمناً ومتلهفاً ليصير مرسلاً عندما يكبر. كانت ماري ترجو في قرارة نفسها، أن تصبح مساعدة له كما سبق ووعدت روبرت قبل وفاته. لكن كل شيء في حياتها القاحلة كان يخبرها أن ذلك حلماً بعيد المنال. فمنذ أصبحت الأسرة تحتاج لأجرها ليستطيعوا أن يعيشوا، ولو أن ماري إتبعت طريق النساء الموجودات حولها فإنها لا بد أن تعمل في الملح حتى تصبح عجوزاً أو تمرض جداً لدرجة عدم قدرتها على الذهاب إلى العمل.

عندما بلغت ماري سن الرابعة عشرة سمح لها أن تمارس

العمل كمساعدة، لقد أصبحت الآن أكبر سناً من أن تذهب إلى مدرسة المحلج، لكنها استمرت تحضر الدروس المسائية وكان هذا يعني أنها كانت تعمل من السادسة صباحاً حتى السادسة مساءً ثم تذهب بعد ذلك للمدرسة لمدة ساعتين قبل العودة إلى المنزل. كانت مدرسة الفترة الليلية قليلة الصبر ولم يكن لديها وقت للتلميذات المتعبات، فلو لم تستطع إحدى التلميذات أن تتابع الكتابة على السبورة كان على التلميذة أن تقف لباقي الحصة لكي تظل منتبهة، وقد حدث هذا لـ ماري عدة مرات، مرة عندما كانت متعبة أكثر من المعتاد نتيجة بقائها مستيقظة طوال الليلة السابقة بسبب ثورات والدها السكير.

كانت وظيفة المساعدة الجديدة تعني أن تتقاضى ماري بضع بنسات أكثر كل أسبوع وتستطيع أن تجلس بدلاً من الجري أو الزحف لمدة إثني عشرة ساعة يومياً .. وكان جيداً أن يدفع للوظيفة الجديدة أجراً أكبر لأنه في عام ١٨٦٢ كانت السيدة سليسور تنتظر مولوداً جديداً، ولم تكن هذه أخبار مفرحة بالنسبة لماري فقد كان هذا يعني أن تصبح ماري ذات الأربعة عشر ربيعاً هي مورد الدخل الوحيد للأسرة بينما تبقى أمها مع المولود الجديد، وولدت الطفلة جاني في وقت لاحق من العام.

كانت ضئيلة ورقيقة بشكل ملحوظ، ولم يتوقع لها أحداً أن تعيش أكثر من بضعة أشهر.

عملت ماري بجهد أكبر من كل الماضي في المحلج وكان هدفها أن تحصل على ترقية إلى أحد المراكز الجديدة الكبرى. حيث كانت (الغازلات) تتقاضين أجراً أكبر من أي شخص آخر. وإذا توالى مرور الأيام وظل المكوك يروح ويجيء برتابة تثير الملل. كانت ماري تصلي من أجل المرسلين أو تخطط في فكرها ما يمكن أن تعمله لفصل مدرسة الأحد الخاص بها.

في ذلك الوقت وفي قلب أسوأ أحياء داندي. خططت كنيسة وبشارت التذكارية أن تبدأ فصولاً لتعليم الأطفال القراءة والكتابة وتعليمهم عن الكتاب المقدس. وطلبت ماري من المشرفة على مدرسة الأحد أن تصبح واحدة من المدرسات. رفضت المشرفة طلبها في البداية، فقد كانت ماري ضئيلة الجسم وأخبرتها أنها تخشى أن يصيبها ضرر ما.

وفي النهاية، كانت أشرس عصابات داندي كانت تحوم المنطقة وجعلت الكنيسة تعلم فعلاً أنها لن تكون موضع ترحيب في منطقتهم. أصرت ماري على أنها كانت تستطيع أداء المهمة وأخيراً رضخت المشرفة وسمحت لها بالمحاولة لفترة من الوقت، وكان على ماري أن تعد ألا تغامر بالذهاب وحدها إلى

الحي المزدهم الفقير بل كان يجب أن يكون معها أحد شيوخ الكنيسة في جميع الأوقات لحمايتها ووافقت ماري على ذلك. وسعدت بمسئوليتها التعليمية الجديدة وأصبحت هذه الفرصة الجديدة هي كل ما ساعدها على الاستمرار في الأيام الكئيبة في المحلج. ولم تستغرق العصابات وقتاً طويلاً لتظهر نفسها، ففي الأسبوع الثالث قررت ماري أن تذهب إلى حجرة الدراسة مبكرة إذ كانت تحتاج أن تكتب أحد الدروس على السبورة قبل وصول التلاميذ. ونسيت وعدها ألا تذهب إلى الحي الفقير بمفردها قط، وإذ أدارت المفتاح في قفل حجرة الدراسة، شعرت بشخص واقف خلفها مباشرة فاستدارت لترى أربعة مراقبين يتطلعون إليها.

قال أحد الأولاد وهو يمد يده ليشد شعرها الأحمر: "إذا فأنت من ستقومين بتعليم درس الكتاب؟ أليس كذلك؟" فأجابت ماري بحزم وهي تستدير برأسها بعيداً: "نعم سأفعل فهل تريد أن تنضم إلى الفصل؟" سألته وكان قلبها يدق بعنف. ضحك الولد الأكبر في المجموعة وقال: "لا، لكننا نحب أن نلعب معك لعبة .. أمسكوا ذراعيها يا أولاد."

قبض اثنان من الأولاد الآخرين على ذراعي ماري ورغم صراعاها إلا إنها لم تستطع أن تهرب من قبضتهم القوية. قال

الولد القائد: "والآن دعينا نرى كيف تحبين هذا؟" قال هذا وهو يخرج حبلاً من جيبه مربوطاً في طرفه قطعة من المعدن الثقيل ذو سن حاد كالموس وقال: "قولي أنك ستعودين إلى البيت وتنسى هذه الغباوة، وأنا سأدعك تذهبين .. وإلا فسوف نرى مدى شجاعتك الحقيقية."

رفعت ماري عينيها إلى قطعة المعدن ثم نظرت إلى الولد وعيناها الزرقاوان مفتوحتين عن آخرهما من الخوف والتحدي. وقالت: "إفعل بي ما تشاء لكنك لن تجعلني أتخلي عن تعليم درس الكتاب المقدس الخاص بي." وانتظرت لترى ما يمكن أن يحدث بعد ذلك. أمسك الولد القائد الحبل فوق رأس ماري ولف قطعة الحديد التي تشبه الموس للأمام وللخلف بحيث جعلها تقترب إلى وجه ماري أكثر عند كل لفة.

وهدد الولد الواقف على يسارها قائلاً: "هل أنت مستعدة للتسليم؟" لم تقل ماري كلمة واحدة، فلقد أصبحت قطعة المعدن على بعد ربع بوصة فقط من جبهتها الآن. وبعد لفات قليلة أخرى سوف تضربها .. وقال الولد الثالث: "هكذا كان الصينيون يعذبون الناس." وخبطت قطعة المعدن الثقيلة جبهة ماري فأحدثت فيها جرحاً، وسال الدم على وجهها، لكنها ظلت فاتحة عينيها تحمق في معذبها بثبات.

وفجأة توقف الولد عن تطويح قطعة المعدن وقال باقتضاب، يكفي هذا .. إنها قوية يا أولاد. "حرر الأولاد الآخرون ذراعي ماري فأخرجت المنديل من جيبها ووضعت على الجرح وقالت: "والآن وقد لعبتم لعبتكم، فهلا دخلتم معي لتروا كل ما هنالك؟" قالت ماري تدعوهم بابتسامة. وسواء كان لأنها تتكلم معهم بدلاً من أن تصرخ من الخوف - أو أياً كان السبب - لم تكن ماري تعلم، فإن الأولاد تبعوها بوداعة إلى الداخل. وسرعان ما لحق بهم عشرون ولداً، ونحو ذلك وقبل أن ينتهي النهار كان الولد الذي عذب ماري بقطعة المعدن الثقيل قد أصبح مسيحياً.

وكثيراً ما كانت ماري تبتسم وهي تتذكر الحادثة، إنها لم تكن أشجع شخص في العالم لكن الأوغاد الذين كانوا عند الباب. في ذلك اليوم علموها شيئاً واحداً - لقد كانوا يريدونها أن ترتعب، ولما لم ترتعب استسلموا هم وكان ذلك درساً لن تنساه. رغم أن الأمور كانت تسير سيراً حسناً بالنسبة لـ ماري إلا أن أصيبت الأسرة بمأساة أخرى، كان والدها قد أصيب بسعال حاد إنقلب إلى التهاب رئوي أدى إلى وفاته في الحال.

خامرت ماري الكثير من المشاعر المختلفة أثناء جنازته، فمن جهة كانت حزينة لأنها ستفقد، فعندما يكون منتبهاً كان والداً لطيفاً وعلى الجانب الآخر عندما كان يسكر كان يبدو

كغريب قاس يسرق الأموال من الأسرة وينفقها على الكحوليات. شعرت ماري بالارتياح لأنه لن يكون هناك المزيد من نوبات هياجه في المنزل، إلا أن جنازة والدها جعلت الحياة تبدو قصيرة وهشة جداً بالنسبة إلى ماري. فمن بين الأفراد الستة لعائلة سليسور التي انتقلت إلى داندي قبل أربعة سنوات لم يتبق منهم الآن سوى ثلاثة أحياء. وتبقى الحياة في داندي بالنسبة لعائلة سليسور ليست أسوأ ولا أفضل مما كانت بالنسبة للآلاف من الأسر الأخرى الذين يتحركون في المدينة بحثاً عن شيء أفضل ولا يجدون سوى المآسي والعناء.

استمرت خبرة ماري في عملها على مغزلها في التحسن حتى أعطيت مغزلين حجم كل منهما إثنان وستون بوصة لتشغيلهما معاً في نفس الوقت. وكان هذا يتطلب قدراً كبيراً من السرعة والتنسيق من جانبها ورغم أنها كانت تعود مرهقة في نهاية كل يوم إلا أنها كانت شاكراً من أجل الأموال الإضافية التي تكسبها من تشغيل المغزلين. وسنة بعد سنة أنتجت مغازل ماري تشكيلة من الأقمشة القطنية ومفارش المائدة والتيل اللازم لقلوع السفن وجوالات الدقيق بل وحتى فوط الأطباق لقصر الملكة فيكتوريا في لندن.

وعندما بلغت ماري الخامسة والعشرين، أصيب أخاها جون

بالدرن، ونصحه الطبيب بضرورة تغيير الجو بأسرع ما يمكن، وتم تجميع كل ما لدى الأسرة من مال لتغطية ثمن تذكرة لإرسال جون إلى نيوزيلانده للإستشفاء وكانت السيدة سليسور وماري وأختاها تصلين كل ليلة أن يستعيد جون صحته تماماً ويعود إلى اسكتلندا ليتدرب كمرسل، لكن هذا لم يحدث فبعد وصوله إلى نيوزيلانده بأسبوع واحد توفى وهو على بعد نصف العالم من أمه وأخواته.

وبينما كان موت جون صدمة مريرة لماري فإن أمها بصفة خاصة أصيبت بالاكتئاب بسببها .. ها هم أولادها الإثنين قد ماتا ولن يكون هناك من يحمل إسم سليسور لكي يحمل رسالة الإنجيل إلى البلاد الأجنبية ولن تكون هناك إرسالية لتفتخر بها .. أو هكذا كانت تفكر.

الفصل الرابع هنصب شرفي

بيد مرتجفة حلت ماري رباط كيس نقودها وسحبت مائة بنساً أعطته لبائع الصحف الذي كان منتظراً على باب المحلج. أخذ بائع الصحف البنس وسلم ماري نسخة من الصحيفة، طبقتها بحرص ودفعتها تحت ذراعها. وأثناء سيرها في الطريق إلى المنزل لتقضي الليل، عبر الشوارع الضيقة المرصوفة بالحجارة سارت خلفها أختاها سوزان وجاني اللتان تعملان معها الآن في المحلج، وكانا قد رأتا عناوين الصحيفة كذلك. سارت الأخوات الثلاث إلى المنزل في صمت. كانت عناوين الصفحة الأولى تتردد صداها في عقل ماري وهي تسير "جثمان ليفنجستون يصل إلى شاوت هابتن".

تسلفت ماري السلام وهي متعبة وفتحت باب شقتهم الكئيبة. كانت أمها تحرك إناء من حساء الخضروات المغلي فوق الموقد الغازي في المطبخ .. ولما رأت الدموع التي على وجه ماري قالت: "ماذا هناك يا إبنتي؟" .. لم تقل ماري شيئاً وبدلاً من ذلك أخذت الصحيفة من تحت ذراعها ونشرتها على المنضدة. مسحت أمها يديها في المنشفة وتفرست فيها وقالت: "إني آسفة

جداً لأن أفكر أن مثل هذا الرجل الرائع قد تركنا .. ليباركه الرب ويبارك كل من يتبعونه." ثم وضعت ذراعيها بحب حول كتف ماري.

أصلحت ماري ضوء المصباح وجلست لتقرأ بعناية نص قصة الجريدة، وأخيراً قالت بعد أن انتهت من القراءة: "إذا كان الأمر حقيقياً. فقد كان الجسد هو جسد ليفنجستون فعلاً وسيقومون بدفنه في (وستمنستر أبي)."

طوال السنوات السبع أو الثماني الماضية كانت هناك شائعات تقول أن ليفنجستون قد مات أو في طريقه إلى الموت. وفي السنة السابقة أي في مايو عام ١٨٧٣ طفت على السطح شائعة جديدة تشير إلى أنه قد مات في كوخ من أكواخ الأهالي في قلب أفريقيا. وكان من الصعب معرفة ما إذا كان هذا حقيقياً أم لا، وحتى عندما حُمل جسد إلى (زنزبار) بواسطة إثنين من الأهالي اللذين أدعيا أنه كان جسد ديفيد ليفنجستون. كان من الصعب القول ما إذا كان ذلك حقاً جسده أو أنه كان جسد رجل أبيض آخر. وعلى أي حال فإن الصحيفة المنشورة أمام ماري عززت أن الجسد كان بلا شك جسد دافيد ليفنجستون وقد فحصه جراح مشهور في لندن ووجد ندبة الجرح في ذراعه الأيسر نتيجة هجوم تعرض له في حادث مع أحد الأسود. وتقول الصحيفة

أنه مات في داخل القارة على ضفاف نهر (موليلانو) وهو لا يزال يبحث عن منابع النيل. ودفن جسده قلبه تحت شجرة في نفس المكان الذي مات فيه ووضعوا جسده في حزمة.. ثم تمضي الصحيفة قائلة: "وبعد ذلك نقل جسده الأوفياء (سوس) و(نشوما) الجسد الخاص بسيدهما المبجل عدة مئات من الأميال إلى الساحل حتى يمكن نقله ليُدفن في وطنه الحبيب." هزت ماري رأسها وقالت: "لابد أنهما كانا يحبانه حباً عظيماً حتى يتحملا كل تلك المصاعب."

استلقت ماري في الفراش في نهاية اليوم وهي تفكر في ديفيد ليفنجستون وكل مغامراته الجريئة، ثم تذكرت كلماته المشهورة: "لايهمني أين نذهب طالما كنا نسير إلى الأمام..". "سر إلى الأمام" فكرت ماري في نفسها: "أنا لا أسير للأمام بل أنا لا أذهب إلى أي مكان. إنني في السابعة والعشرين الآن وأعمل في محلج للقطن إثني عشرة ساعة يومياً طوال ستة أيام أسبوعياً ووقت الفراغ أقضيه في مساعدة كنيستنا ولكن هذا لا يكفي، بل يجب أن يكون هناك المزيد في الحياة ينتظرنني." وتذكرت على الفراش ورفعت صلاة: "أريد يا إلهي أن أمضي قدماً مثل ديفيد ليفنجستون، أرسلني إلى مكان ما - أي مكان - أرسلني للخارج لأصبح رسالة."

وعندما استيقظت ماري في الخامسة صباح اليوم التالي كان ذهنها صافياً بدرجة ملحوظة - صافياً جداً في الحقيقة، وتساعلت لماذا لم تفكر في هذا الأمر من قبل - بالطبع أراد الله لها أن تكون المرسلة من أسرة سليسور فإن روبرت وجون لا يستطيعان الذهاب الآن فكلهما قد توفى - لكنها لا تستطيع أن تذهب بمفردها - كانت أختاها كبيرتان وتطيعان أن ترعيا والدتهما ويمكن أن تكفي أجرة عاملتين في المحلج لإعالة ثلاثة أفراد، كما قالت ماري لنفسها أنه إلى جانب ذلك لو أنها عاشت على الكفاف في حقل الإرسالية فقد يمكنها أن ترسل قليلاً من النقود إلى الوطن لتساعد في إعالة أمها.

استغرقت ماري وقتاً طويلاً لتستجمع شجاعتهما وتخبر أمها عن خطتها. فلقد كانت السيدة سليسور معتمدة على ماري لمدة سنوات طويلة الآن ولن يكون من السهل عليها أن تقبل سفر ابنتها. ومرت الأيام دون أن تقول ماري أي شيء إلى أن تحققت أخيراً أنها إذا لم تخبر والدتها حالاً عن حلمها أن تصبح مرسلة فسيبدأ هذا الحلم في الاضمحلال وسينتهي بها الأمر إلى قضاء بقية عمرها في غزل الأقمشة في محلج القطن في داندي باسكتلندا.

بدأت ماري - بعد الغداء ذات يوم من أيام الأحاد - تقول:

"أمي، أريد أن أتقدم بطلب إلى مجلس إدارة الإرساليات الأجنبية لأذهب فيما وراء البحار وأخذ رسالة الإنجيل إلى الوثنيين - تماماً كما كان يفعل ديفيد ليفنجستون - لقد فكرت في هذا الأمر زمناً طويلاً، وأعتقد أنك وسوزان وجاني تستطيعن أن تدبرن أموركن بدوني." وحبست ماري أنفاسها في انتظار رد فعل أمها.

وقفت السيدة سليسور عن مقعدها واندفعت تحتضن ماري وهي تقول: "لا أستطيع أن أكون أكثر فخراً إذ أفكر أنني سوف أقرأ عن المرسلة سليسور في نشرة أخبار الإرساليات أخيراً." فأجابتها ماري قائلة: "لكنني أكره أن أترككم." وقد أخذت بحماس أمها الغير متوقع. قالت الأم: "وإن كان جانباً من نفسي أيضاً يكره أن يراك تذهبين، لكنني لن أستمع قط بيوم آخر أقضيه معك إذا فكرت أن تبقي في الوطن من أجلي بدلاً من الاستجابة لنداء الله. إن سوزان وجاني يمكنهما العناية بي بما فيه الكفاية. إجلسي الآن واكتبي الطلب." ضحكت ماري في ارتياح وقالت: "إنك تتكلمين كما لو كنت سأسافر غداً. هناك الكثير من المصاعب التي يجب التغلب عليها. فأولاً يجب أن تقبلني إدارة الإرساليات فكل تعليمي لا يتجاوز سنتين دراسيتين، لقد كان ديفيد ليفنجستون طبيباً وقسيساً مرتسماً عندما أصبح

مرسلاً أما أنا فلا أزال بعيدة كل البعد عن ذلك."

أجابت أمها: "هذا حق، لكنك إستغليتي كل الفرص التي عرضت عليك. فلا تستطيع أي عاملة في المحلج أن تقرأ كلمة واحدة. وأما أنت فتقرأين الأدب الإنجليزي في وقت فراغك، وليس ذلك فقط بل لقد أحسنت العمل في مدرسة الأحد." قالت ماري وهي تهز كتفيها: "أفترض أنك على حق، أعلم أنني لن أستطيع قط إدارة محطة إرسالية أو أي شيء في مثل حجمها، ولكني يمكن أن أكون مساعدة جيدة لشخص ما." وانخفض صوتها وإذ تقابلت عيناها مع عيني أمها علمت أنهما كانا يفكران في روبرت وجون.

وتساءلت الأم قائلة: "أين تعتقدين أنك ستذهبين، هناك الكثير من الأماكن التي تعمل فيها الكنيسة." أجابت ماري قائلة: "لست أعلم فليست لدي مهارات خاصة، ولذا فسوف أذهب حيثما يرسلوني."

كان لدى الكنيسة المشيخية المتحدة في اسكتلندا إرساليات تعمل في الهند والصين واليابان وأفريقيا. وكانت ماري في قرارة نفسها تريد أن تذهب إلى (كالابار) على الساحل الغربي لأفريقيا، وعلى أي حال فقد فكرت أن لديها فرصة أفضل لقبولها كمرسلة إذا هي لم تعين إرسالية محددة تريد أن تخدم في

حقها. وبدون مهارات حقيقية ستعتبر نفسها محظوظة إذا وضعت في أي مكان.

أخيراً وفي بداية عام ١٨٧٦ - وبعد استكمال تلال من الأوراق، أستدعيت ماري لمقابلة شخصية مع إدارة قسم الإرساليات الأجنبية. كان أعضاء المجلس قد قرأوا طلبها وهم يريدون الآن أن يتكلموا معها شخصياً.

دقت ماري على الباب الكبير المزخرف بالحفر القائم بجانب كنيسة وبشارت التذكارية وانتظرت، كانت تؤنب نفسها لشعورها العميق بالعصبية، فرغم أنها كانت تعرف الكثير من الأشخاص في مجلس الإدارة، وكان أحدهم صديقها (جيمس لوجي) ومع ذلك فقد كان اليوم واحداً من أهم الأيام في حياتها، يوماً كانت تريد أن يسير كل شيء فيه على ما يرام. فاليوم قد تكتشف ما إذا كان هناك مكان لها، وهي صانعة النسيج ذات الثمانية والعشرون عاماً في الإرسالية، وإذا كان هناك مكان فأين يكون؟ انفتح الباب الضخم ودعيت ماري للدخول إلى حجرة كبيرة ذات أرضية خشبية حيث جلس سبعة رجال حول مائدة بيضاوية، وحياها جيمس لوجي ودعاها للجلوس وكانت (ماري) مسرورة للجلوس لأن ركبها كانت تصطك وأرجلها ترتجف. ابتداً أحد شيوخ الكنيسة، وكان أصلع الرأس لم تكن ماري

تعرفه جيداً وقال: "الآن يا آنسة سليسور، لقد درسنا طلبك بعناية." حبست ماري أنفاسها وقلبها كان يدق بعنف داخل صدرها. مضى الشيخ قائلاً: "وكما سارت الأمور فإننا نحتاج لمدرسة في (كالابار) هل ستكونين مهتمة بالذهاب إلى هناك."

انطلقت من ماري شهقة، إنهم يفكرون في إرسالها إلى كالابار - إنها تكاد لا تصدق - ولبرهة نسيت أن تجيب على السؤال، ثم تذكرت مكان وجودها وصاحت: "آه نعم - كم أود أن أذهب إلى كالابار فأنا لا أفكر في أي مكان آخر أفضل يمكنني الذهاب إليه - متى يمكنني الذهاب؟" يتسم لها شيخ الكنيسة وقال: "جيد أن نرى هذا الحماس، لكن المكان الذي سنرسلك إليه مكان صعب - وعليك أن تتذكر ذلك. فإن الكثيرين من أعضاء مجلس الإدارة لديهم بعض الشكوك حول ذهابك إلى هناك." وصمت لكي يدع أثر كلماته يغوص في أعماقها. ثم قال: "في النهاية أنت فتاة رقيقة وأفريقيا حقل إرسالية صعب كما أن كالابار هو الأصعب. لكنك أثبتت كفاءتك في عملك في مدرسة الأحد."

قالت ماري: "شكراً لك .. شكراً لك .. أنا لن أخذلكم قط." استمرت المقابلة بضع دقائق فقط، فقد كان لدى ماري كثير من الأسئلة. وإن كان أغلبها غير قابل للإجابة الآن. أوصت اللجنة

أن تذهب ماري إلى أدنبرة لمدة ثلاثة أشهر للتدريب على التدريس الرسمي. والتخطيط للإبحار إلى أفريقيا في أواخر صيف عام ١٨٧٦ - سيعود من نيجيريا في ذلك الوقت إثنان من المرسلين الإسكتلنديين السيد والسيدة طومسون وسيكون جيداً لو استطاعت ماري أن تبحر معهما على نفس البخرة.

قال جيمس لوجي وهو يربت على ذراع ماري ويسير بها نحو الباب: "سأكون على اتصال بك. هناك الكثير مما يتطلب التخطيط له. لكن نحن هنا لمساعدتك، تهنئي لك وأنا متأكد أنك ستكونين مرسلية عظيمة." سارت ماري إلى بيتها في ذهول - لقد قضت الكثير من الوقت وهي تغد نفسها لتوقع الرفض حتى أنها كادت لا تستوعب الحقيقة فيما حدث - كانت كلمات جيمس لوجي قد ظلت تدور في ذهنها: "أنا متأكد أنك ستكونين مرسلية عظيمة." لكن ماري لم تكن متأكدة، لكنها ستحاول بأقصى ما لديها من جهد. إن الله شيئاً محدداً لها لتعمله في كالابار حقاً إن ماري لم يكن لديها أي توقع لما ينتظرها ولا عن المغامرات التي ستواجهها والشهرة التي سوف تتبعها.

إنبهرت السيدة سليسور وهي تسمع خبر قبول ماري في الإرسالية، ومضت مع سوزان وجاني يعملن أي شيء يقدرن على عمله لمساعدة ماري في الاستعداد - مضت الأم مع ماري

في تفحص النسخ القديمة من تقارير الإرساليات لترى ما إذا كانت هناك أي معلومات يمكن أن يكونا قد تجاوزناها عن كالابار وإن كانت ماري قد قرأت هذه التقارير أكثر من مرة بل إنها قد حفظتها فعلاً عن ظهر قلب. وهناك تقرير معين قد سحرها بصفة خاصة وهو الذي إحتوى على تاريخ الإرسالية في كالابار.

كانت الإرسالية في كالابار قد تأسست منذ ثلاثين سنة مضت في (ديوك تاون) بواسطة القس (هوب واديل) وكان الغرض منها هو جعل المرسلين يعملون وسط مجموعة من الوطنيين الذين كانوا قد شحنوا من قبل في سفن إلى (جاميكا) كعبيد وكانت جاميكا مستعمرة بريطانية. ولما ألغي نظام الرق في جميع المناطق البريطانية عام ١٨٠٧ تم تحرير العبيد الذين رغب الكثير منهم في العودة إلى مواطنهم الأصلية ونتيجة لذلك استقرت مجموعة كبيرة منهم في كالابار وأرسلت إليهم الإرساليات إلى أفريقيا للعمل بينهم.

إنبهرت ماري وهي تفكر أنها بعد أن قرأت عن الإرساليات لعدة سنوات، ها هي أخيراً ستذهب لتراها بنفسها، بل ربما أمكنها مقابلة بعض أبناء أولئك العبيد السابقين، كل هذا كان يبدو غريباً جداً. لقد حاولت أكثر من مرة قبل ذلك أن تتخيل بيت

الإرسالية فوق تل الإرسالية في أعلى ديوك تاون. كانت تعرف أسماء أربع مدن أخرى صغيرة موجودة على نهر كالابار وهي (أولد تاون) و(جريك تاون) و(أكنيتو) وأبعد الكل (أوكوفيورونج). وكان كل من المدن الخمس محطتها المرسلية والتي يقودها قس مشيخي مرتسم تساعده مدرستان أو ثلاثة.

تم تعيين ماري لتعمل في الموقع الأصلي للإرسالية في ديوك تاون تحت إشراف القس (أندرسون) وزوجته. وكانت قد سمعت للزوجان أندرسون وهما يتحدثان في اجتماع مرسلي منذ عدة سنوات. وبالطبع لم يكن لديها وقتها أي فكرة أنها يمكن أن تكون واحدة من مدرساتهم المساعدات، ولو أنها علمت لكانت قد سألتها مليون سؤال، ويظل من المريح أن يكون لديها فكرة عن الناس الذين ستعيش معهم.

سرعان ما جاء شهر ديسمبر وهو الوقت الذي كان فيه على ماري أن تتدرب على التدريس في أديبرة ووجدت الفراق صعباً وإن كانت سوف تعود إلى داندي لتودع أسرتها قبل السفر إلى أفريقيا. أحببت ماري كل شيء في أديبرة، قلعة أديبرة الضخمة والبيت العتيق لملوك الإسكتلنديين والذي يقبع على قمة (كاسل روك). كانت ماري ترفع أنظارها يومياً إلى جدرانها الحجرية المهيبة ذات الأبراج المشيدة منذ ثمانمائة عام. أثناء سيرها في

شارع الأميرة في طريقها إلى مدرسة (كاربنجتون) الأهلية حيث كانت تتدرب مع مدرسة مؤهلة. وكانت ماري تكتب باجتهاد ملاحظات حول كيفية تعليم الأطفال القراءة والكتابة وكيف تدير فصلاً مدرسياً، ولم يمضي وقت طويل حتى كانت هي بنفسها تدرس مع المدرسة الأخرى التي تعطيها ملاحظات ونصائح مفيدة. ولم تكن النصائح الخاصة بالتدريس هي فقط التي حصلت عليها من أدنبرة بل إن الكثيرين من أعضاء كنيسة أدنبرة المشيخية في الشارع البريطاني قد نصحوها فيما يتعلق بـ كالابار. فقد اعتقد بعض أعضاء الاجتماع أن فكرة ذهابها إلى كالابار كانت فكرة غبية ألم تسمع أن أفريقيا كانت معروفة بأنها مقبرة الرجل الأبيض، ألم تكن تعلم أن واحداً فقط من كل خمسة مرسلين قد استمر على قيد الحياة في الحقل المرسل هناك لمدة أربع سنوات. ألم تعلم أن الحيوانات المقدسة كانت تجوب الممرات، والأمراض الغامضة تصيب الناس في مقتل أثناء الليل وأن الأهالي الذين يرتدون الملابس الغريبة يجولون في الغابة ويقتلون الناس عامدين؟

كانت ماري تعلم لكن ذلك لم يمنعها فقط بل يبدو أنه كان له أثر عكسي، فقد صارت ماري مقتنعة أكثر من أي وقت مضى أنها يجب أن تسير في طريقها إلى كالابار. وعندما توسلت إليها

إحدى صديقاتها ألا تذهب مشيرة إلى أنه من المحتمل ألا تظل على قيد الحياة خلال السنة الأولى لإقامتها في أفريقيا. أجابتها ماري قائلة: "إن كالابار منصب شرفي طالما أن مرسلين قليلين تطوعوا لهذه المنطقة، فأنا أرغب أن أذهب إلى هناك لأن سيدي يحتاجني هناك أكثر من أي مكان آخر."

ولم تستطع ماري فقط أن تزيح جانباً التحذيرات بخصوص خططها بل إنها كانت متحمسة لأن إثنان من صديقاتها الجدد، تحمل كل منهما اسم ماري قد تطوعتا كمرسلات وقد أعطي لكل منهما مراكز في الصين وقد زارت السيدات الثلاث مختلف الكنائس حول أدنبرة وهن يتحدثن عن الحاجة إلى مرسلات وسرعان ما أعطين لقب (الثلاثة ماري) وأصبحن شهيرات في كل مكان يذهبن إليه، لكن ماري سليسور نفسها تحدثت أقل مرات ممكنة تاركة الأخباريات يشرحن دعوتهن للإرساليات.

بعد أن أمضت ماري عشرون أسبوعاً في مدرسة (كانون جيت) العادية، أصبحت المدرسة الكبيرة مقتنعة بأن ماري أصبحت مدرسة جيدة التدريب وأنه قد حان الوقت لها أن تعود إلى داندي وتودع أسرتها. ولما كان توديع أمها هو الشغل الشاغل لـ ماري، فإنها سعدت عندما عادت ووجدت أمها وأختيها جميعاً في حالة طيبة وروح معنوية مرتفعة. كانت جاني

ذات التسعة عشر ربيعاً وسوزان ذات الستة والعشرون ربيعاً قد أحسنتا تأدية واجبهما في رعاية أمهما وأنفسهما. وقضت ماري الأسابيع الثلاثة في دوامة. وهي تحزم حقائبها بزيها المرسلي الجديد: بلوزة بيضاء وجونلة بنية اللون من الصوف وقبعة ضد الشمس. وهي تتحدث في الكنائس القريبة عندما لا تجد مفرأ من ذلك. وقضاء أكبر وقت ممكن مع أسرتها.

وأخيراً جاء يوم الثلاثين من يوليو عام ١٨٧٦ وكان اليوم الذي لطالما اشتاقت إليه ماري وخافت منه. اليوم ستقول وداعاً لحياتها البسيطة في اسكتلندا. جاء كثير من الناس إلى محطة القطار ليوودعوها، وإذ سار القطار للأمام شددت ماري النافذة وأخذت تلوح بيدها وهي تقول: "صلوا من أجلي". .. وانتظرت حتى اختفى رصيف المحطة عن الأنظار ومعه كل الناس الذين أحببتهم.

الفصل الخامس

على أرض أفريقية

أطلت ماري من نافذة العربية وهي تقترب من جهة وصولها حوض سفن (ليفربول) وكانت تستطيع أن ترى القلوع الطويلة للسفن ترتفع فوق أسطح المخازن. وتسارعت دقات قلبها إذ اقتربت العربية ودارت دورتها الأخيرة قبل أن تقف الجياد عن السير.

علق أحد الرجلين الذان اصطحبها إلى (ليفربول) من رجال مجلس إدارة الإرساليات الأجنبية وسحب ساعة جيبه وأقفلها ثم أعادها إلى جيبه مرة أخرى وقال: "كيف الحال يا ماري؟" لم تعرف ماري كيف تجيب على السؤال ببساطة فقد كان لديها الكثير جداً من الأفكار والعواطف تتصارع داخلها. كانت منفعة لكونها في وسط هذا المكان الرائع المليء بالضوضاء. كانت تستطيع أن ترى من خلال النافذة البحارة والتجار وعمال الشحن ومجموعات مختلفة من الناس. وسقط نظرها على الباخرة (أثيوبيا) بقلوعها الطويلة ومداخلها. ستقوم هذه الباخرة بنقلها بعيداً عن بريطانيا عبر مساحات واسعة من المحيط إلى مكان تجتاحه الملاريا والحمى الصفراء وحمى المياه السوداء طالبة

حياة العديد من الأجانب. ولقد أبهجت الفكرة ماري وأخافتها. رفعت صلاة سرية وهي تنزل من العربة قائلة: "قدي يارب واستخدمني كما تريد."

بعد ساعة واحدة كانت كل متعلقاتها قد وضعت في كابينة الصغيرة بأمان. وكانت ماري قد تعرفت إلى القبطان وكلا من السيد والسيدة طومسون وعلى ظهر الباخرة وقفت تراقب بينما يتم شحن بقية الحمولة بما فيها براميل ضخمة تم دحرجتها على السطح وإنزالها في السفينة.

وأخيراً في الثالثة والرابع من بعد ظهر الخامس من أغسطس عام ١٨٧٦ شعرت ماري سليسور بالآلة البخارية في باطن السفينة وهي تهتز تحت أقدامها. وأنزلت السقالة ببطء إلى رصيف الميناء وصاح القبطان قائلاً: "حل السفينة." وقفت ماري تراقب الحبال التي كانت تربط السفينة بالرصيف وهي تتحل. وفي خلال دقيقة أو اثنتين كانت أنيوبيا تطفو في حرية. وفجأة بدأت المياه التي عند مؤخرة السفينة ترغى وتزبد مثل الماء المغلي إذ اتخذت السفينة طريقها مبتعدة عن الرصيف وتساعد من الناس الواقفين على الشاطئ هتاف عالٍ وهم يودعون المسافرين على الباخرة. وأثناء سير أنيوبيا بعيداً في مجرى نهر (ميرسي) بدأت الأصوات في الميناء تخفت ببطء في البعد.

وخلال ساعة كانت مقدمة السفينة تشق طريقها في مياه البحر الأيرلندي، وسرعان ما بدأت ماري تشعر بدوار البحر فاعتذرت عن الغذاء ونزلت إلى كابينة حيث فتحت سريرها وأنزلته، فلم يتبق من المكان إلا ما لا يكاد يكفي لها لتخلع ملابسها.

ووجدت ماري أنه سيكون من الصعب جداً أن تستريح كما توهمت. فقد كانت السفينة تتأرجح صعوداً وهبوطاً وتتدحرج من جانب إلى آخر. وشكرت الرب لأنها لم تأكل أي طعام - وأخيراً - وبعد منتصف الليل بقليل راحت في نوم منقطع. وفي الصباح التالي شعرت ماري بدوار البحر أكثر من أي وقت مضى ولم تستطع احتمال أن تترك فراشها .. زارتها السيدة طومسون عدة مرات أثناء اليوم وهي تحضر لها الشاي وبعض الفطائر. واستمرت ماري كذلك لمدة ثلاثة أيام حتى انتهى دور دوار البحر واستطاعت أن تغامر بالصعود إلى ظهر السفينة .. وكانت السفينة وقتها قد غادرت شواطئ الأرض منذ وقت طويل وأصبحت الآن في عرض المياه المكشوفة لشمال الأطلنطي، وقد امتلأت القلوع برياح الجنوب النشطة وكانت الآلات البخارية التي كان القبطان قد استخدمها للمناورة والخروج من ميناء ليفربول قد أصبحت صامتة الآن، وتساءلت

ماري ما إذا كان هناك خطأ ما في الآلة. لكنها علمت وقت الإفطار أن كل شيء على ما يرام فإن الباخرة لم تكن تحمل فحمًا يكفي لتشغيل الآلات البخارية كل الرحلة. وبدلاً من ذلك كانت السفينة مزودة بقلوع كبيرة تستخدم في الإبحار في البحر المفتوح، ولم تكن الآلات تستخدم إلا في المناورة للخروج والدخول إلى الميناء. وفي حالات الطوارئ أو عندما كانت السفينة تتصارع مع رياح أو تيارات قوية.

وإذ وقفت ماري على سطح السفينة في ذلك الصباح وهي تنظر عبر المحيط الرمادي، كانت مليئة بالإثارة حيث أدركت للحظة حقيقة أنها هي الآن وأخيراً - في طريقها لأن تكون مرسله، وستكون الأرض التي ستراها بعد ذلك هي أفريقيا.

انزلقت السفينة في المحيط بسرعة عشر عقد، وكانت ماري تقضي معظم الوقت مع السيد والسيدة طومسون اللذان كانا عائدين إلى جبال الكامبيرون في غرب أفريقيا ليشيدا ويديرا منزلاً للمرسلين الذين يحتاجون إلى الرعاية والراحة خلال نوبات المرض. سيقوما السيد والسيدة طومسون بالنزول مع ماري في ديوك تاون ثم يستأنفا السفر إلى مقصدهما النهائي من هناك. وكان السيد طومسون قد زار منطقة كالابار عدة مرات من قبل، وكان قادراً على إسداء بعض النصائح إلى ماري فيما

يمكن أن تواجهه هناك، وقد بدا ذلك غريباً بالنسبة لها كما لو كان مأخوذاً من رواية حافلة بالمغامرات.

شرح الدكتور طومسون أنه كانت هناك عدة قبائل في المنطقة وكانت القبيلة التي تسكن المنطقة الساحلية من كالابار تسمى (الإفيك). وكان شعبها فيما مضى هو المجموعة التي تعاملت في تجارة العبيد، وهم الآن يتعاملون مع التجار الأوربيين الذين يأتون ليشتروا زيت النخيل ويعودوا به إلى إنجلترا. وكانت تلك هي المرة الأولى التي تسمع فيها ماري عن زيت النخيل. وفي وقت العشاء ذات ليلة، سألت السيد طومسون عن استخداماته فأجابها قائلاً : " أن له عدداً مذهلاً من الاستخدامات، فمنه يستخرج زيت رائع للآلات والدراجات الأكثر نقاءاً ويمكن أيضاً استخدامه في الطهي وصناعة الشموع والصابون."

سألت ماري: "هل الإفيك هم الذين يتاجرون في هذا الزيت؟" أجابها: "نعم، إنهم الوسطاء فalcبائل الأخرى تأتي لهم بالزيوت وهم يعملون على بيعها أو مبادلتها وإذا كان التجار يتطلعون إلى زيت أنقى فإنهم يبيعون لهم جوز الهند نفسه ليتم شحنه في السفن إلى إنجلترا لتصنيعه ، ويمكنني القول أن الإفيك كانوا يحصلون على أرباح وفيرة."

تساءلت ماري: "وكيف يدفعون لهم ثمن الزيت؟ هل بالجنبيات الإنجليزية؟" كانت تريد أن تعرف أكبر قدر من المعلومات عن كالا بار .. هز السيد طومسون رأسه وقال: "لا، فإن العملة الإنجليزية ليست ذات قيمة بالنسبة للإفيك فهناك عملة ذات قيمة أعلى في أفريقيا." وسكت فترة ثم استأنف قائلاً: "هي عملة الحكول، إن هذه السفينة محملة بالروم والجين (وهي أنواع من الخمر) وهي التي سيدفعونها في التجارة مع القبائل الساحلية مقابل زيت النخيل."

غاص قلب ماري وتذكرت أنها رأت البراميل وهي تُلقى داخل عنابر السفينة هناك في ليفربول ولم يكن لديها فكرة عن محتوياتها. وعادت بفكرها إلى والدها، لقد كانت تعلم ما يكفي بما يفعله الكحول بالإنسان وأسرته وأصدقائه بل ومجتمعه .. وعندما فكرت في أفريقيا لم تكن تتصور أن دولتها يمكنها أن تستخدم الكحول كوسيلة في التجارة .. وأصابها الاكتئاب والحزن عند التفكير في هذا النوع من التجارة ثم تساءلت: "وماذا يدفع الإفيك للقبائل الداخلية مقابل زيوتهم؟"

أخذ السيد طومسون شريحة من الخبز ووضعها على جانب طبقه ثم أشار إلى الخبز بالسكين وقال: "أنت تعرفين يا ماري أن أفريقيا تشبه إلى حد كبير قطعة من الخبز لها قشرة خفيفة

حولها من الخارج، ولقد جاء الأوروبيون كلهم حول الجزء الخارجي من أفريقيا، فالساحل مرسوم بالخرائط جيداً وكثير من أماكن إقامة الأوروبيين البيض، وقد بقي بعضهم لمدة ثلاثمائة سنة أو يزيد، والحق أن أهل البرتغال كانوا يترددون على تلك الشواطئ منذ القرن الخامس عشر، لكن هذه هي الحدود الخارجية فقط من أفريقيا - القشرة - أما ما كان داخل أفريقيا، ونوعية الناس الذين يعيشون هناك من هم؟ أو ماذا يعتقدون؟ .. فإننا في الحقيقة لا نعرف .. وحتى عندما كانت تجارة العبيد في أوجها كانت القبائل الساحلية هي التي تدخل إلى داخل القارة وتأسر القبائل الداخلية وتأتي بها إلى الساحل لتتاجر فيهم، ولم يدخل الرجل الأبيض إلى الداخل قط ليحصل على العبيد بنفسه.. ودخل قليل من الشجعان أمثال ديفيد ليفنجستون، لكن أحداً منهم لم يعش ليخبرنا عن المكان. وكل من رأوا بعيونهم المكان لم يروا سوى القليل مما يمكن رؤيته." .. ثم دهن السيد طومسون شريحة الخبز بالزبد ووضع فوقها المربى. وهنا قالت ماري: "لكن لابد أن إرسالية كالا بار تعرف شيئاً عن قبائل الداخل."

قال طومسون: "حسناً، عندما بدأ القس هوب داديل الإرسالية في كالا بار عام ١٨٤٦ لم يكن الرجل الأبيض قد توغل داخل أفريقيا لأكثر من خمسة أميال فقط." ذهلت ماري

وقالت: "هل يعني قولك هذا أن الوطنيين كانوا مع الرجل الأبيض لمدة أربعمئة سنة ولم يدخل أوروبي واحد إلى داخل البلاد لأكثر من خمسة أميال فقط؟" قال: "هذا صحيح تماماً فإن البحارة لم يقدموا حتى على المغامرة بالخروج من سفنهم إلى أن وصلت الإرسالية .. وكانت القوارب تسبح بالمجاديف حول سفنهم وتتاجر معهم في قلب المياه." قالت ماري: "هذا شيء مذهل. فما الذي نعرفه نحن؟ وإلى أي مدى توغل المرسلون في الداخل حتى الآن؟"

مضى السيد طومسون يقول: "دعيني أرى .. يمكنني القول أنهم دخلوا لمسافة خمسة وثلاثين ميلاً تقريباً، فما زال هذا الأمر خطيراً جداً كما تعلمين. فحتى الوطنيين لا يجسرون على السير في مناطق بعضهم البعض. فمعظم القبائل تقتل الدخلاء بمجرد رؤيتهم."

كان لدى ماري الكثير الذي تفكر فيه، فأكلت باقي وجبتها في صمت، كان أكثر ما ضايقها أن الناس الذين كانوا أكثر حاجة إلى رسالة الإنجيل - كما يبدو جلياً - هم الذين قتلوا كل من جاء لهم بها .. قد تكون هي مجرد رسالة مبتدئة ولكنها ماري سليسور ركزت نظرها منذ تلك اللحظة على ما كان يبدو هدفاً مستحيلاً وهو الدخول أو التوغل في الداخل حيث لم يصل

شخص أبيض من قبل.

كانت السفينة قد أبحرت لمدة أسبوع عندما سمعت ماري بحاراً يصيح: "الأرض، هيا إلى الميناء." فاندفعت ماري مع مسافرين آخرين إلى الجانب الأيسر من السفينة. ليحصلوا على لمحة من أول أرض ينظروا إليها منذ خروجهم من إنجلترا - رفعت ماري النظر عبر المسافات، استطاعت أن ترى هناك عند الأفق ما يمكن أن يكون الخطوط الأولى للأرض اليابسة.

قال السيد طومسون الذي كان يقف بجوار ماري: "الرأس الأخضر، هذا هو الاسم البرتغالي، إنه الطرف الغربي الأقصى لأفريقيا، وسوف نبدأ سريعاً في الاتجاه نحو شاطئ سيراليون وبعده إلى نيجيريا وكالابار."

ابتسمت ماري وهي تقول: "أنا لا أستطيع الإنتظار." وقد أثارها أخيراً أن تنتظر بعينها إلى أفريقيا وهي تكاد لا تصدق أو تنتظر إلى أن تضع أقدامها على أرض أفريقية .. لم تكن قد رأت قط شخصاً أفريقياً من قبل. كل ما رأيته كان مجرد رسومات في كتب ليفنجستون، ومع ذلك فإنها سرعان ما ستقابل أناساً أفارقة وجهاً لوجه وتسمع لغتهم بنفسها. ومضى السيد طومسون يقول: "سيكون من السهل معرفة الوقت الذي ستتجه فيه نحو الشاطئ. فسوف تقاد بفعل ريح قوية مضادة وسيأمر

القبطان بتشغيل الآلات البخارية لأن السفينة ستحتاج إلى قوة إضافية."

وإذ وقف المسافرون صامتون في الشمس الاستوائية الساخنة يراقبون الرأس الأخضر وهو يمر أمامهم. طوت ماري أكمام بلوزتها البيضاء فلقد كانت تشعر بالحر، وقد انزلقت قطرات من العرق على ظهرها. وكانت قبعتها التي تحميها من الشمس تجعلها تشعر بالصداع، فحلت أربطة قبعتها التي تحت ذقنها والتي كانت تحفظ القبعة في مكانها. إلا أن السيدة طومسون قالت: "احتفظي بالقبعة على رأسك، فإن فتاة لها مثل شعرك الأحمر وبشرتك البيضاء لابد أن تتحول في ظرف ساعة واحدة إلى لون الفحم في هذه الشمس."

أعادت ماري ربط الأشرطة فقد كان ذلك صحيحاً فإن لها البشرة غير المناسبة للتعرض للشمس دون قبعة. وبعد أن غدا الرأس الأخضر بعيداً عن العيون ظلت السفينة في عرض البحر مدة طويلة ولم تظهر أي أرض أخرى .. وبعد بضع ساعات أخرى ظهر شاطيء (سيراليون) أخيراً .. وذهلت ماري وهي ترى التلال الخضراء التي تشبه تلك الموجودة في (أبردين) حيث كانت قد أمضت سنوات طفولتها الأولى. وأسرعت ماري لتجد السيد والسيدة طومسون قد ذهبا معاً ليشاهدا خط الساحل

وهو يكبر إلى أن استطاعت ماري أن تتبين صفوف الأكواخ المربعة القائمة فوق التلال وتحتها الشواطئ الطويلة البيضاء، تحدها أشجار النخيل المتمايلة .. ودق جرس الغداء، لكن ماري لم تكن تريد أن تترك سطح السفينة ولا أن يفوتها رؤية جزء صغير من الشاطيء وقد أبهجها المنظر الذي ظهر لها كأنه أحد مواقع قصة من قصص الجنيات.

وبعد عدة أيام تالية، وفي يوم السبت الحادي عشر من سبتمبر لاحظت ماري وهي تطل إلى الماء في الأسفل أن المياه قد غدت حمراء اللون تميل إلى البني. وكان القبطان قد طلب منها أن تراقب ظهور الطمي وهو أول علامة تشير إلى أنهم يقتربون من فم نهر كروس ريفير، ومرة أخرى دق قلب ماري بسرعة في استثارة. سيكون هذا أول يوم تضع فيه أقدامها على أفريقيا، اليوم الذي سترى فيه أخيراً الشعب الذي قررت أن تعيش وتموت من أجله.

في هذا الوقت كان كل الركاب على سطح السفينة وهم يشربون بأعناقهم ليكونوا أول من يحدد موقع (جزيرة البيغاء) في مدخل مجرى (كروس ريفر). كان صف كثيف من الأشجار الغريبة ذات الجذوع الملتفة الرمادية اللون والجذور التي خرجت مثل المخالب إلى داخل المياه. قد حددت الشاطيء

الغربي للنهر، ولم تستطع ماري أن ترى الشاطئ الشرقي لأن مدخل كروس ريفر كان يبلغ اتساعه إثني عشر ميلاً.

قال السيد طومسون مشيراً إلى الأشجار الغريبة: "هذه هي أشجار المانجروف وهي تنمو بطول النهر ويكاد يكون من المستحيل إختراقها." وهنا تدخلت السيدة طومسون قائلة: "إن الملايريا تأتي من العيش قريباً جداً من مستنقعات المانجروف، كما يعتقد الأطباء، وهذا له صلة ما بالرطوبة الجوية. وهذا هو السبب في أن بيت الإرسالية قد أحسن وضعه فوق التل."

وقف المسافرون في صمت فترة من الوقت وكانت الآلة البخارية المرتجفة هناك أسفل أقدامهم. وقد طارت فوق رؤوسهم أسراب من الببغاوات الملونة بينما انزلقت التماسيح - بدون جهد - في المياه غير تاركة سوى عيونها المنفخة لترى فوق سطح الماء بينما كانت السفينة تنزلق. كانت ماري تعرف أسماء الكثير من الحيوانات من الرسوم الموجودة في الكتب التي استعارتها من مكتبة الكنيسة في داندي لكن لم يكن هناك ما يعدها للمنظر الملون المذهل للمخلوقات الغريبة التي رأتها في ذلك الصباح فدرست المنظر غير المنتهى بانبهار تام. قال السيد طومسون: "أنظري إلى أعلى هناك، تلك الأسوار هي كل ما تبقى من (الباراكون) أو المناطق المعلقة التي كان يحفظ فيها العبيد وهم

مقيدون أثناء انتظار شحنهم في السفن، وكان معظمهم يشحن من كالابار أكثر من أي ميناء آخر في كل الشاطئ الأفريقي." تضايقت ماري وهي تتصور العبيد وهم مربوطون معاً رجالاً ونساءً وأطفالاً كلهم مقيدون بالسلاسل مثل الحيوانات في انتظار تصديرهم. وقد سرها أن كل هذه الممارسات البشعة قد توقفت منذ زمن بعيد لكنها كانت حزينة أنها كانت قد بدأت من الأهل.

وعلى بعد عشرين ميلاً في مجرى نهر كروس ريفر استدارت أثيوبيا إلى الجانب الأيمن ودخلت إلى نهر جانبي هو نهر كالابار الذي كان أضيق بكثير من كروس ريفر، واستطاعت ماري أن نقف على ظهر السفينة وتراقب الحياة البرية على جانبي النهر. وعلى بعد عشرة أميال داخل نهر كالابار دخلت السفينة في منعطف. وظهرت ديوك تاون مبنية داخل تجويف أسفل دغل ضخم من أشجار القطن. كان هناك أكواخ طينية صغيرة ذات أسقف من سعف النخيل وعلى طول حافة النهر كانت مدافن السفن القديمة على شكل صف من السفن التي كانت قد أبحرت من انجلترا وقد تم ربطها بصفة دائمة على حافة المياه وكان التجار يستخدمونها لتخزين زيت النخيل والحمولات الأخرى في انتظار وصول سفينة لتتقلها مرة أخرى إلى انجلترا، بل أن بعض التجار استخدموا السفن القديمة

كمنازل حيث أن الكثيرين منهم قد اعتادوا أن يعيشوا في ديوك تاون طوال سنة كاملة. بدلاً من أن يعودوا إلى انجلترا مع كل شحنة.

كانت القوارب من كل الأحجام والأشكال تسبح حول السفن القديمة دخولاً وخروجاً، وعلى التل فوق المدينة كان يقف ما علمت ماري أنه لابد أن يكون بيت الإرسالية وشعرت بالاستغراب وهي ترى أخيراً البيت بعد أن كانت قد تابعت تقدم الإرسالية طوال السنوات العشرين الماضية. فقبل وصول الإرسالية كان الموقع يستخدم للتخلص من أجساد العبيد الموتى. والآن هناك مجموعة من مباني الإرسالية تقف شامخة على قمة التل. وللحظة تمنّت ماري لو تستطيع الرسم، كم كانت تتوق إلى الاحتفاظ بهذا المنظر الأول لـ ديوك تاون مرسوماً على الورق.

كان القبطان يقف بجوار السياج ليودع ماري والسيد والسيدة طومسون وهم يهبطون على جانب السفينة إلى القارب الطويل المسمى السريع وستة أولاد من الوطنيين بعضلاتهم اللامعة وأسنانهم البيضاء البراقة يجذفون بالقارب إلى ساحل الإرسالية بينما تبعهم قارب آخر يحمل الأمتعة، وذهلت ماري من سواد جلد الشبان الأفارقة خاصة إذا قورن ببشرتها الشاحبة.

وسرعان ما شعرت ماري بباطن القارب وهو يحتك بالرمال ثم يتوقف، ووقفت وأصلحت من هدامها وتسلفت خارجة ثم وقفت ساكنة وهي تستوعب مشاعر اللحظة. ها هي ماري سليسور تقف أخيراً على الأرض الأفريقية وخلفها السفينة أثيوبيا وقد ألفت مراسيها وهي تناور لتدور وتتجه مرة أخرى إلى البحر ومن ثم جنوباً إلى ميناء وصولها الثاني، وأمامها كان موطنها الجديد، أو مقبرة الرجل الأبيض، كما أشار إليه أهل اسكتلندا هناك عندما كانوا يحاولون إقناعها بالعدول عن الذهاب، لكنها الآن موجودة هنا، ولم تكن ماري تتوي أن يكون المكان مقبرتها.

* * * * *

الفصل السادس

المهمة التي تنتظرها

حاولت ماري أن ترفع شعرها لتضعه تحت القبعة، أثناء تتبعها السيد والسيدة طومسون عبر الممر المليء بالأزهار إلى بيت الإرسالية. كانت تشعر بالمرر يتميل تحتها، فبعد ستة وثلاثين يوماً على ظهر سفينة كان جسمها قد أصبح معتاداً على الحركة الدائمة ورغم أنها قد أصبحت فوق اليابسة الآن فإن ذهنها كان لا يزال يخبرها أن كل شيء يتميل، وكان القبطان قد قال لها أن هذا شيء طبيعي جداً وأنه خلال بضعة أيام ستستعيد إحساسها بالتوازن وتسترد أقدامها الأرضية مرة أخرى.

وعندما اقتربت ماري وآل طومسون إلى المنزل انفتحت الأبواب الضخمة وانسابت مجموعة من الناس وهي تثرثر خارجة لتحية القادمين الجدد. وفجأة شعرت ماري بالخجل ولا سيما بعد التحية الحماسية وتراجعت قليلاً، ولكن سرعان ما تم الترحيب بها وضمها إلى المجموعة. كان هناك أسماء كثيرة ووجوه عديدة يجب أن تتذكرها رغم أنها كانت فعلاً تعرف الكثير من الأسماء من قراءة نشرات أخبار الإرسالية هناك في

داندي. وقد تعرفت بصفة خاصة على إسم القس (ألكسندر روس) الذي كان حالياً مسئولاً عن الإرسالية وألكسندر مورتون وإمرأة أكبر قدمت نفسها لها وقالت: "مرحباً في كالابار يا ماري أنا أبوفيميا سزرلاند. دعيني أريك غرفتك وبعدها سنناول جميعاً قداً من الشاي في شرفة المنزل."

ابتسمت ماري في خجل وتبعته السيدة سزرلاند إلى داخل المنزل. كان البيت فسيحاً وجيد التهوية وكانت الأرضيات المصنوعة من الخشب جيدة التلميع وهناك نوافذ كبيرة في كل حائط خارجي كما زينت الداخل عدة قطع من الأثاث المصنوع من خشب الماهوجني. كان للبيت جو من يوحى بالجودة والكفاءة، وقد شعرت ماري فوراً أنها في منزلها.

صعدت المرأتان درجات السلم وتوقفت السيدة سزرلاند خارج أحد الأبواب في الردهة وقالت: "هذه ستكون غرفتك وسأتركك الآن لترتيب أمورك. ويمكنك النزول وقتما تكونين مستعدة وسأكون أنا جالسة في الشرفة." ابتسمت ماري وقالت: "أشكرك، لن أتأخر كثيراً فليس لدي الكثير لأرتبه." وأشارت إلى الحقيبة الصغيرة المصنوعة من خيوط السجاد والتي كانت تمسكها وهي تقول: "إن معظم متعلقاتي في الحقيبة الكبيرة التي ستحضر فيما بعد إلى المنزل."

خطت ماري إلى داخل غرفتها الجديدة. وكانت غرفة صغيرة ربما بلغت ضعف مساحة السرير المحاط ببرواز من الحديد الذي كان يقف في إحدى نهايات الغرفة ولكنها كانت كافية لمرسلة منفردة وكانت قطعة الأثاث الأخرى في الحجرة هي مكتب ومقعد وكانت أرجل السرير الأربع مغمورة في علب صغيرة مليئة بأحد السوائل وإذا اشتمت السائل وهي منحنية إلى أسفل علمت ماري أنه كان الكيروسين وكانت إحدى المرسلات التي كانت في إجازة في اسكتلندا قد تحدثت عن طريقة لمنع النمل وهي الكيروسين. فقد كان الكيروسين هو أحد الأشياء القليلة التي يملكها النمل واستطاع أحدهم في بيت الإرسالية أن يبتكر طريقة لمنع النمل من الدخول إلى الأثاث عن طريق الكيروسين.

وضعت ماري حقيبتها المصنوعة من خيوط السجاد على الفراش وسارت إلى النافذة وأزاحت الشيش وفتحته لتقع عينيها على جنة إستوائية. وكم تمنى لو تمكنت أمها وأختها من رؤية هذا المنظر. كانت حجرتها تشرف على حديقة الإرسالية حيث كانت أشجار كبيرة تحيط بجوانب الحديقة كإطار، وتعرفت ماري على أشجار الليمون والبرتقال ونخيل الموز والبنانا الحمراء اللامعة. لكن كانت هناك أشجار أخرى لم يكن لديها أي

فكرة عنها. إحداها كانت شجرة ضخمة ذات أوراق خضراء لامعة وثماراً ذات استدارة تامة خضراء اللون وفي حجم ثمرة القرع وأخرى ذات ثمر بيضاوي، وبين الأشجار كان هناك بعض الشجيرات ذات الحجم الأصغر والتي لم تر مثيلاً لها في اسكتلندا. كانت شجرة منها بالذات تنتج أزهاراً ملونة تشبه النجوم. وتساءلت ماري في نفسها إذا كانت هي التي تعطي الرائحة اللذيذة التي تصاعدت إلى حجرتها.

واستطاعت ماري أن تسمع صوت السيدة طومسون في الشرفة، ورغم أنها كانت ستسعد بالبقاء مدة أطول لتستوعب الجمال الخاص بكل ما يحيط بها، فإن الأصول كانت تقضي أن تنزل إلى الطابق الأسفل وتلحق بالآخرين. كانت الشمس قد بدأت في الغروب فوق الغابة الاستوائية عندما خطت ماري خارج حجرتها.

قال لها السيد مورتون: "تعالى إجلسى يا ماري" ووقف ليعطيها مقعده .. وتم تقديم ماري إلى كل المرسلين والمرسلات المقيمين في بيت ديوك تاون. كان هناك أربعة أزواج وزوجات وأربعة سيدات عازيات وأربعة رجال عزاب والسيدة سزرلاند وهي أرملة، وعلمت ماري أن آل أندرسون الذين كانوا عادة يشرفون على عمل الإرسالية كانا قد عادا لتوهما إلى اسكتلندا

في إجازة قصيرة وحيث أن السيدة أندرسون لم تكن موجودة فقد وضعت ماري تحت إشراف (بوفيميا سزرلاند).

استقرت ماري في حياتها الجديدة بسهولة وقد بدا لها - للأسبوع الأول - أن كونها مرسلة كان عملاً بسيطاً. فقد كانت ماري تتوقع أن تمرض ببعض الأمراض الاستوائية المخيفة بمجرد نزولها، ولكن من يوم وضعت قدمها على الشاطئ شعرت أنها في صحة جيدة. وكانت قد توقعت أيضاً أن يكون الأهالي بدائيون وغير راغبين في الاستماع إلى المرسلين لكنها وجدت العكس، وفي أول يوم أحد لها في كالابار ذهبت إلى خدمة الصباح التي كانت تعقد في كنيسة الإرسالية، وكانت الكنيسة مزدحمة نحو حوالي خمسمائة إلى ستمائة من الوطنيين. وقيل لها أن أربعمائة آخرين يجتمعوا في الكنائس في أولد تاون وجريك تاون وقام القس روس بقيادة الخدمة بلغة الإفريك، وبالطبع لم تستطع ماري أن تفهم كلمة مما قال ولكنها تعرفت على نغمات بعض من الترانيم التي رنموها. وكان يبدو أن الأفارقة يستمتعون جداً بالخدمة وقد أسعد ذلك ماري. كما أنها تأثرت بالمدرسة في صباح يوم الإثنين وقد أعطيت مجموعة من الأطفال من سن سبعة إلى عشرة أعوام لتعلمهم. وانتبه الأولاد للدرس وحاولوا أن يركزوا على البطاقات اللامعة التي رفعتها

أمامهم. كما كانوا أيضاً مؤدبين ومحترمين وقد أحببهم ماري منذ البداية.

وفي مساء يوم الأحد الثاني لماري في كالابار، دعتها السيدة سزرلاند للسير إلى ديوك تاون معها لزيارة بعض أحياء النساء هناك أو الساحات كما كانوا يسمونها. وقبلت ماري الدعوة بلهفة. لقد رأت الأطفال الأفارقة في المدرسة والبالغين في الكنيسة وها هي الآن تتلف لرويتهم في منازلهم.

سارت السيدتان معاً في الطريق الذي يعبر المدينة وكانت وقفتهما الأولى أمام ثلاثة رجال جالسين القرفصاء على قارعة الطريق وكان أحدهم يحيط بذراعه خمسة زجاجات خمر من نوع الروم. ضاقت عيناه عندما رأى السيدتين البضاوتين تقتربان. بدأت السيدة سزرلاند - التي كانت قد عاشت في ديوك تاون لمدة عشرين عاماً وتعرف أن تتكلم بلغة الإفريك بطلاقة - في الحديث مع الرجال، وأصغت ماري بعناية محاولة أن تتذكر بعض من مفردات لغة الإفريك التي تخرج من الأنف. واستمرت المناقشة عدة دقائق إلى أن نهض الرجال الثلاث وساروا بعيداً.

استدارت السيدة سزرلاند إلى ماري وهي تتنهد قائلة :

"إنها نفس المشكلة القديمة فإن الكثيرين من الرجال يكسبون قوتهم من بيع الروم لزملائهم من رجال القبائل الذين يشربونه

ويستلقون طوال اليوم على الأرض قبل أن يذهبوا ليشتروا المزيد. وفي النهاية تنفذ الأموال من أيديهم ويكون عليهم إما أن يسرقوا أو يستجدوا من الآخرين لكي يحصلوا على المزيد." وسألته ماري في حب استطلاع قائلة: "وماذا قلت لهم؟" قالت بحزن: "قلت لهم إن الله يريدهم أن يعيشوا حياة طيبة وأن يعتنوا بعائلاتهم لكنهم دائماً يجيبون نفس الإجابة." سألتها ماري قائلة: "وما هي هذه الإجابة؟" قالت السيدة سزرلاند: "إنهم يقولون دائماً أن الرجل الأبيض يخبرهم دائماً ألا يشربوا الخمر وهو الذي يحضره لهم، ويقولون لو أن الروم شيء غير صالح فلماذا تحضره لهم نفس السفن التي تأتي بالمرسلين؟ إن هذا ليس له أي معنى بالنسبة لهم، ولماذا يكون له معنى؟ إنهم يعتقدون أن جميع الرجال البيض هم من المسيحيين، وإنهم يرون التجار الجشعين يبيعون لهم الكثير من الروم والكحوليات قدر ما يستطيعون. إنها مشكلة عويصة."

كانت ماري تستطيع أن ترى أنها كذلك بالفعل. وإذا استمرت المرأتان في السير إلى ديوك تاون ظهرت أمامهما الأكواخ الطينية. كان بعضها متجمعاً معاً ولها ساحات محاطة بسياجات، وعند وقفهما عند أول بيت استمعا إلى صوت نواح ففتحت السيدة سزرلاند الباب الخاص بالسياج وخطت بقدميها فوق

أرض الساحة الخالية وتبعتها ماري وروعها ما رأيته. كان هناك أربعة أشخاص مستقلين على الأرض وكانوا قذرين ونحفاء والساحة جرداء واستطاعت ماري أن ترى السبب، ففي الركن كان هناك مجموعة من الذباب الضخم تحوم وتتر حول كومة من الفضلات الآدمية، كان الناس يستخدمون الساحة كدورة مياه.

تكلمت السيدة سزرلاند مرة أخرى بلغة الإفيك وكان صوتها رقيقاً وناعماً وبعد أن انتهت أشارت إلى ماري لتتبعها إلى داخل الكوخ المصنوع من القش، فأحنت ماري رأسها ودخلت. وفي الداخل كانت ستارة بالية من الموسلين ترفرف في الهواء وعلى الأرض كان مثلث من القماش مفروشاً ليغط كومة. وحول قطعة القماش كان هناك أنواع مختلفة من الفواكه والخضروات. أشارت السيدة سزرلاند إلى قطعة القماش وقالت: "هذه الأسرة في جنازة فقد فقدوا ابناً صغيراً في الأسبوع الماضي وهذه هي مقبرته."

إرتجفت ماري فهي لم تكن تستطيع تصور وجود مقبرة أحد الأشخاص تحت أرضية غرفة معيشة مباشرة .. وأخبرتها السيدة سزرلاند قائلة: "إن شعب الإفيك يحزنون على موتاهم بتجويع أنفسهم وأسرهم بينما يتركون كميات كبيرة من الأطعمة

لروح الشخص الميت لتأكل." نظرت ماري إلى الطعام وافترضت أنه لابد قد فسد بمرور يومين فقط ومضت السيدة سزرلاند تقول: "إن الوالد غاضب جداً فإن الإفيك يعتقدون أن كل شخص من المفترض أن يموت في السن المتقدمة وأنه إذا مات شخص في سن صغيرة فيكون ذلك لأن شخصاً آخر قد ألقى عليه لعنة ما .. ويعتقد الوالد أنه يعرف من قتل ابنه وأنه بمجرد إنتهاء الجنازة سيقوم بقتل ذلك الشخص، وكنت أحاول أن أخبره أن بعض الناس الصغار السن يموتون وأن ذلك ليس بسبب خطأ من أي إنسان، لكنه لم يصدقني إذ أن عقيدتهم أن الأرواح الشريرة تسيطر على كل ما يحدث للبشر، عقيدة قوية. بدأت ماري ترى أن كونها مرسله هنا لن يكون - في النهاية - أمراً سهلاً كما تصورت.

عادت المرأتان للولوج في ضوء الشمس اللامع مرة أخرى، وقالت السيدة سزرلاند بضع كلمات بلغة الإفيك ثم تركت هي وماري الساحة. سحبت ماري أنفاساً عميقة من الهواء المنعش عندما تذكرت أنها صارت بعيدة عن الكوخ بمسافة كافية. قالت السيدة سزرلاند: "حسناً، سأريك الآن شيئاً يسعدك. هل تحبين مقابلة إحدى العرائس." قالت ماري: "سيكون هذا ممتعاً طالما لا تكون محاطة بأجساد الأموات."

سارت المرأتان متجاوزتان مزيداً من الأكواخ حتى وصلت إلى كوخ محاط بسور عال وقالت السيدة سزرلاند: "هذا هو كوخ التسمين، فإن الناس في كالأبار لديهم تقليد غير عادي، إذ يقومون بتسمين عرائسهم قبل أن يتزوجن."

صاحت السيدة سزرلاند ببضع كلمات قليلة من خلال السياج المقام من العصى، فانفتحت بوابة من الداخل. فابتسمت وأشارت إلى ماري أن تخطو إلى الداخل .. وفي الداخل رأت ماري سيدتان أفريقيتين ضخمتين وتصورت أنهما يمكن أن تزنا مائتان وخمسون رطلاً على الأقل. جلست المرأتان فوق مقاعد منخفضة لا تكاد تكفي لاحتواء لحمهما المكتظ. وبين المرأتين وقف طبق ضخم من الفواكه المحمرة. جاء عدد من النساء من داخل الكوخ وحيث المرسلتين. تكلمت السيدة سزرلاند بلغة الإفريك مرة أخرى وإن كانت هذه المرة قد أخرجت الكتاب المقدس وقرأت بضع آيات لإحدى العرائس التي يتم تسمينها. ولم تكن ماري ترفع عينيها عن العروستين المقبلتين. فقد كان من الصعب عليها تصديق أنهن يتعمدن جعل أنفسهن بدينات.

شرحت السيدة سزرلاند الموضوع لماري قائلة أن عروساً بدينة في كالأبار كان يعني أن والدها لديه الثروة الكافية ليزود بناته بما لا نهاية له من الأطعمة، وأن يكون له العديد من العبيد

بحيث لا يكن على العروس أن تعمل أي عمل، كان على العرائس أن يجلسن محجبات في كوخ التسمين لمدة تصل إلى عام كامل وليس معهن سوى نساء كبيرات السن ليصطحبن.

كان هذا مفهوماً لماري، على الرغم من أنها لم تكن تصدق أن أي رجل يمكنه أن يجد امرأة بهذا الحجم الضخم جذابة. أكدت السيدة سزرلاند أن العرائس لن يبقين بهذه البدانة فعندما يتزوجن لن يطعموهن أزواجهن بما يكفي. في الوقت الذي تركت فيه ماري كوخ التسمين كان ذهنها يلف فروية الأفارقة في الكنيسة أو المدرسة شيء، ورؤيتهم في أكوأهم الخاصة يتبعون عاداتهم الخاصة وطريقتهم الخاصة في الحياة شيء آخر.

قررت المرسلتين أن تقوما بزيارة واحدة أخرى قبل التوجه للعودة إلى بيت الإرسالية، وكانت هذه الزيارة بالنسبة لـ ماري هي أكثر الزيارات إثارة للقلق .. كانت المرأتان قد تقابلتا عند البوابة مع رجل عجوز كان يمضغ ويصق نوعاً من العروق البيضاء. تكلمت السيدة سزرلاند ببضع كلمات إلى الرجل الذي اختفى بالداخل. قالت السيدة سزرلاند وهي تنتظر مع ماري بجوار البوابة: "إنه لأمر يدعو للسخرية. إذ أن نساء العبيد أحرار في التحرك خارج ديوك تاون والتكلم مع أي من يرغبون

في الكلام معه، لكن النساء المتزوجات والأرامل يجب أن يطلبن الإذن من أزواجهن أو حراسهن إذا أردن التكلم مع أي شخص والحق إنهن لم يكن يحصلن على السماح بالخروج من ساحاتهن على الإطلاق.

تنهدت ماري وتلفتت حولها. كانت الساحة مربعة بمساحة عشرين قدماً مربعاً، وفي النهاية البعيدة من المكان كان هناك مزار وبداخله بعض الخيوط على مائدة منخفضة ودجاجة ميتة مدلاة مقلوبة من أحد المخاطيف. وكان هذا هو نفس ما رأيته ماري في كل الساحات الأخرى، مذبح لراحة الشياطين الذين يعذبون البيت والناس الذين يعيشون فيه.

أخيراً عاد الرجل الذي افترضت ماري أنه كان حارساً. وأشار للمرأتين المرسلتين لتدخلا إلى داخل الكوخ. كان الكوخ مظلماً في الداخل ولم يستغرق اعتياد عيني ماري على الضوء لحظة قصيرة وإذ تم ذلك بدأت ماري تتبين شكل امرأة عجوز ضئيلة الحجم في النهاية القصوى للحجرة، التي ابتسمت إبتسامة بدون أسنان وأشارت إلى المرسلتين أن تقتربا. ارتجفت ماري فقد ذكرت المرأة العجوز بالساحرة في إحدى قصص الجنيات التي قرأتها في طفولتها. كانت محاطة بجماجم بشرية وكل أنواع الأكياس والصناديق، وقد خمنت ماري أنها كلها لها صلة

بالشياطين لكنها لم تكن متأكدة أي شيطان. ووجدت ماري نفسها سعيدة للمرة الأولى لأنها لا تتكلم بلغة الإفيك لأن ذلك كان يعني أنه لن يكون عليها أن تقول أي شيء لهذه المرأة العجوز الغريبة. تكلمت السيدة سزرلاند مع المرأة لفترة قصيرة، وكانت المرأة تبصق على الأرض وهي تستمع .. وبدأت ماري تلتفت حولها في الحجرة، ففي الركن البعيد كان ملقى كوم من الخرق، أو هكذا اعتقدت ماري، حتى بدأت قمة الكومة تتحرك. مشت ماري نحوها لترى ما كان هناك، وفجأة جلست امرأة ثم اثنتان أخرتان، وكن جميعاً نحيفات وبدا كأنهن مخدرات. ابتسمت ماري بأفضل ما أمكنها وحيتهن، لكن لم تقم الثلاث سيدات الصغيرات بأي محاولة للرد عليها وحتى عندما جاءت السيدة سزرلاند إليهن. وبعد عشرة دقائق كانت الزيارة قد انتهت، سُرّت ماري بالخروج إلى الخارج مرة أخرى فإن شيئاً ما في الكوخ قد جعلها تشعر بالتأثر أكثر من باقي الأكواخ التي زارتها من قبل.

تساءلت ماري وقد بدأت السير هي والسيدة سزرلاند عائدتين إلى التل حيث بيت الإرسالية عما كان كل هذا. قالت السيدة سزرلاند: "هؤلاء السيدات هن أرامل أحد أغني الرجال في المدينة، والمرأة العجوز التي تكلمت معها كانت الأرملة

الأكبر سنًا. ولما كان زوجها قد مات فقد راحت تلقي تعاويذ شريرة على الزوجات الأصغر سنًا. "أضافت ماري: "كما تعمل على تجويعهن أيضاً حتى الموت كما يبدو." وافقتها السيدة سزرلاند قائلة: "إنني لا أندesh قط لذلك، فإن للزوجة الكبرى كل القوة على الزوجات الأصغر سنًا وكثيراً ما تبقيهن في حالة الحزن لعدة سنوات ويموت الكثيرات منهن فعلاً. وليس هناك الكثير الذي نستطيع نحن أن نعمله بهذا الخصوص، فمنذ ثلاثين عاماً فقط كان يمكن أن يقتلن جميعاً عند موت زوجهن وتدفن في قبره حتى يستطعن مرافقته في الحياة الأخرى."

سارت المرأتان في صمت لفترة قصيرة، وكانت ماري تحاول أن تستوعب كل شيء رآته خلال بعد ظهر اليوم الأسرة في الجنازة، العرائس في كوخ التسمين، الأرملة العجوز التي تأسر الزوجات الأصغر سنًا. وأخيراً سألت وهي تكافح لتصل إلى معنى لكل ذلك: "لكن ألا يذهب معظم هؤلاء الناس إلى الكنيسة؟" توقفت السيدة سزرلاند والتفتت لتواجه ماري وهي تقول: "نعم إنهم يفعلون ذلك حقاً فلدينا ما يزيد عن ألف شخص يحضرون الكنيسة، لكن في كل السنين التي عملت فيها الإرسالية وسط هؤلاء الناس لم يبدي إلا ١٧٤ شخصاً من الأهالي رغبتهم في أن يصبحوا مسيحيين."

سألت ماري: "لماذا هم قليلون هكذا؟" استمرت السيدة سزرلاند تقول وهي تفكر: "إن لدى معظم الرجال أكثر من زوجة واحدة وبعضهم لديه عشرين أو ثلاثين زوجة، وهم لا يريدون أن يتنازلوا عنهن جميعاً كما تطلب منهم الكنيسة منهم أن يفعلوا .. و .. " توقفت لكي تضرب ناموسة كانت قد حطت على ظهر يدها ثم أكملت: "إنهم يريدون عقيدة الرجل الأبيض التي تكفي لتعليم أطفالهم وتجعلهم يظهرون بمظهر محترم، لكن في أعماقهم فمعظمهم لازال خائفاً من الأرواح الشريرة."

فكرت ماري في كلمات السيدة سزرلاند، فلقد قضت ثلاثون عاماً منذ بدأت الإرسالية عملها في كالابار وقد مات حوالي عشرين مرسلاً بما فيهم زوجها، وتم دفنهم في المقبرة الصغيرة كما أن عشرين مرسلاً آخرين قد عادوا إلى بلادهم اسكتلندا بصحة جيدة وفي كثير من الحالات أرواحهم كانت منكسرة. وكل هذا لربح أقل من مائتي مؤمن .. وأثناء تسليقها التل إلى بيت الإرسالية كانت ماري قد بدأت تفهم ضخامة العمل الذي ينتظرها. كانت أفريقيا - بكل المقاييس - غريبة كما تصورتها وتساءلت ماري كيف سيتمكن يوماً ما أن تصل برسالة الإنجيل إلى أولئك الناس.

* * * * *

الفصل السابع

الكفاح المتواصل

أغمضت ماري عينيها وهي تستمع إلى صوت المجاديف وهي تضرب الماء، كانت حركة المجاديف الإيقاعية وهي تضرب المياه تكاد تكون حسنة لدرجة لا تصدق. لقد بقيت في بيت الإرسالية في ديوك تاون ثلاثة أشهر حتى الآن، وأخيراً أصبحت حرة وكانت في طريقها لزيارة جريك تاون في أعلى النهر، وأفضل الكل أنها قد بعدت عن حدود الحياة في بيت الإرسالية حيث لا تنتهي أمسيات شرب الشاي واستقبال رجال الحكومة الرسميين وحفلات العشاء الرسمية مع قباطنة وضباط السفن التجارية الراسية في مجرى النهر، لقد كان هذا يضيق على ماري التي كانت تود أن تكون في الخارج مع الناس المحليين، تتعلم لغتهم التي كانت تلتقطها بسرعة غريبة. لم تكن ماري تحب أن ترندي جونلتها الصوفية وبلوزتها البيضاء ذات الياقة المنشأة وتجلس لتناقش أحوال الجو وآخر الشائعات من انجلترا، فمثل هذه الأنشطة كانت تبدو بلا هدف عندما كان هناك الكثير من الأعمال التي يتعين على الإرسالية عملها. ولقد أمضت ماري عدة أسابيع وهي تحاول إقناع القس (روس) بأن

يسمح لها بالقيام برحلة إلى أعلى النهر، كانت المرسلات من السيدات في الماضي غير مسموح لهن بالغامرة بالدخول إلى الداخل بمفردهن، لكن ماري كانت ملحّة في طلبها وأخيراً ربح إلحاحها.

والآن وهي بعيدة عن ديوك تاون بدا كل شيء حولها جديداً ورائعاً، حتى التماسيح التي كانت تنزلق في حرية حول القارب لم تخيف ماري. ومما أسعدها أنها علمت أن الأولاد الذين كانوا يقودون القارب كانوا يعلمون كيف يتعاملون مع التماسيح التي حولهم، كما كانت السيدة سزرلاند أيضاً قد أعطت تعليماتها لـ ماري عن كيفية تغادي النمر والتعرف على الأفاعي المميّنة.

وصلت المجموعة إلى جريك تاون في أعلى النهر في الوقت المناسب لحضور الكنيسة يوم الأحد وكانت ماري مثلهة لحضور الكنيسة ومقابلة الملك (أيو أونستي السابع) والذي كان من أوائل من تحولوا إلى المسيحية على يد القس (هوب واديل) وقد قرأت ماري عنه في تقارير الإرسالية. رحب الملك (أيو) بـ ماري والأولاد وأعطاهم مقاعد الشرف أثناء خدمة الكنيسة. لقد بدا الملك غاية في الأناقة في ملابسه المكونة من صديري حريري وبنطلون رمادي مزخرف بالدبابيس، رغم أنه لم يكن يلبس قميصاً أو حذاءً، وقد حسدته ماري إذ كانت تشعر

بالحرارة المؤثرة وتتوق لأن تتمكن من خلع بعض طبقات من ملابسها لكن مثل هذا العمل ما كان يمكن أن يكون مناسباً لسيدة من العصر الفيكتوري.

ألهمت خدمة الكنيسة ماري فقد استمتع الحضور في الاجتماع بحماس وهم يصفقون ويضحكون - متجاوبين مع خدمة الملك أيو - كانت الطبول الوطنية تدق دقات قوية على نغمات الترانيم التي كان يرنمها الجميع بحماس. وبعد الخدمة اقترب الملك أيو من ماري وطلب منها أن تلتحق به لتناول وجبة معه في قصره. لم تكن ماري تصدق أنها سوف تأكل مع ملك. قال لها الملك أيو: "لا شك أنك تودين أن تري جريك تاون وسوف أجعل أحد مساعدي يرافقك، وعندما تسمعين المدافع سوف تعلمين أن العشاء على وشك الإعداد." أجابت ماري: "أشكرك كثيراً جداً" وقد أدهشها أن تسمع مثل هذه اللغة الإنجليزية المتقنة تخرج من رجل أفريقي.

تبعّت ماري مساعد الملك خلال حوار ماري وشوارع جريك تاون التي كانت تشبه شوارع ديوك تاون وإن كانت أقل ازدحاماً وأخف رائحة .. وإذ سار الإثنين كان معظم الأطفال يركضون ويختبئون عندما يرون ماري وقد ارتبكت برد فعلهم هذا إلى أن أشار مساعد الملك إلى شعرها الأحمر وقال: "النار، الأم

البیضاء تبدو كما لو كانت رأسها مشتعلة بالنار. "ضحكت ماري فإن شعرها الأحمر كان موضع مناقشات دائماً حتى في اسكتلندا، فلا عجب إن كان أطفال جريك تاون قد خافوا منه.

أخذت ماري على غرة بصوت المدافع يوم .. يوم قال مرشدها: "إن الملك يستدعينا." وأشار تجاه المنزل الجاثم على مشارف الخليج وقال: "إتبعيني." وسرعان ما أدخلت ماري ومرشدها إلى حجرة كبيرة قد غطت أرضيتها وجدرانها السجاجيد، ووضعت بطولها مائدة طعام ضخمة وقد جلس على رأس المائدة الملك أبو وهو يبدو باهراً في قبعته العالية السوداء التي بدا واضحاً أنه إرتداها لهذه المناسبة فقط. أشار إلى ماري أن تجلس إلى يمينه. الأمر الذي فعلته في عصبية فلم تكن لديها فكرة عن الأساليب الصحيحة بالنسبة لتناول الغداء معه ولا ما يمكن أن يحدث إذا هي أخطأت التصرف.

كانت أعصاب ماري مشدودة جداً خلال النصف الأول من الوجبة، ولما كانت ضيفة الشرف للملك كان يتعين أن يقدم لها الطعام أولاً في كل مرة ونتيجة لذلك لم يكن هناك من تتبع أفعاله، وقد أحسنت التخمين عندما أحضرت لها امرأة خادمة لا ترتدي سوى جونلة ملونة طبق فيه ماء، ولأنه لم يكن هناك كوب، مدت ماري يديها أمامها لكي يتم غسلهما .. وصبت

الخادمة الماء على يديها وأتت سيدة أخرى بمنشفة وجففت يديها. رفعت ماري صلاة شكر داخلها، فلقد فعلت الشيء الصحيح فيما يتعلق بطبق الماء. وأعدت نفسها للطعام الذي كان سيتبع بالتأكيد. وإذا علمت أن عدم أكلها ولو قليلاً من أي طبق يقدم لها سيكون بمثابة إهانة للملك فإنها أخذت القليل من كل صنف، لقد تعرفت على بعض الأطعمة - لحم الجداء المحمر - الدجاج - الشرائح المحمرة في الزيت - الخضروات ذات الأوراق الخضراء التي تشبه السبانخ - ومع ذلك فقد كانت أحياناً لا تعرف ما تأكله. كان أحد الأطباق به عظام دقيقة منغرفة في اللحم. هل كانت أحد الطيور؟ أم فأراً؟ لم تستطع ماري أن تعرف وكان طبق آخر يحتوى على حساء به مادة تشبه الجيلي عائمة فيه. كانت ماري تركز في حديثها مع الملك أبو أثناء إبتلاعها للطعام.

عند نقطة معينة في الحوار نظر الملك وقد بدا متحيراً وسأل: "يبدو أنك كنت تعرفين الكثير عني" أشرق وجه ماري وهي تقول: "نعم، أيها الملك. فكل فرد في كنيسة في داندي قد قرأ عنك والطريقة الآمنة التي تحكم بها شعبك. ولقد كانت أمني تصلي من أجلك كل يوم أحد." تطلع الملك أبو إلى ماري بعينين مفتوحتين من الدهشة وقال: "هل هناك في داندي من يعرفني؟"

ثم قال وهو لا يصدق: "والدتك تهتم بملك يبعد عنها أربعة آلاف ميل؟" أجابت ماري بحماس: "نعم، نحن كلنا ننتمي إلى ملكوت الله وهناك الكثيرين الذين يهتمون بك."

ظل الملك صامتاً لفترة طويلة ثم قال: "أود أن أكتب خطاباً إلى أمك فهل تعطيني عنوانها؟" ابتسمت ماري وهي تقول: "بالطبع" وهي تفكر في مدى الإثارة التي ستشعر بها أمها عندما تتراسل مع الملك أبو نفسه. أمضت ماري بضعة أيام أخرى في جريك تاون وما حولها قبل أن تتوجه عائدة إلى أسفل النهر إلى بيت الإرسالية في ديوك تاون.

في أوائل شهر يناير عاد كل من وليم ولويزا أندرسون من إقامتهما في اسكتلندا، لقد كانا مرسلين محنكين وكلاهما أناس عمليين. كانت السيدة أندرسون أو (مامي) كما كانت تصر على أن يدعوها الناس، دوامة من النشاط وكان يبدو أنها قد جربت يدها في كل شيء من بناء الطرق إلى تبادل معاهدات السلام وتمريض رجال البحر المرضى. وكانت الحياة تسير بالنسبة لـ مامي بالساعة. حتى في كالابار حيث كان الزمن الوحيد الذي يعرفه الأهالي هو شروق الشمس وغروبها، حاولت مامي أندرسون أن تفرض المدنية عن طريق الحفاظ على الوقت بكل انضباط. ولم يكن هذا النظام ناجحاً خارج الإرسالية دائماً فقد

كان الأهالي يعتقدون أنه لا توجد مشكلة في التأخر لمدة ساعة أو ساعتين عن اجتماع ما لكن داخل الإرسالية كانت الساعة تتحكم في الجميع.

وبقدر ما كانت ماري تحترم مامي أندرسون ونشاطها الهائل فإنها لم تكن متحكمة تماماً في أوقاتها، وبمجرد عودة مامي مرة أخرى إلى كالابار كلفت ماري بأسوأ مهمة ممكنة وهي ضرب الجرس لصلوات الصباح في السادسة صباحاً ولم يكن لدى ماري وسيلة للاستيقاظ والنهوض في هذا الوقت كل صباح. وحدث مرة أنها حاولت القيام وهي نصف نائمة ودقت الجرس في الساعة الثالثة صباحاً إذ ظننت خطأ أن بريق القمر كان هو ضوء شروق الشمس، ولم يسعد أي شخص بها في ذلك الصباح.

وفي مرة أخرى تأخرت ماري في الذهاب للعشاء، وطبقاً لقواعد مامي الحاكمة فإنه كان على من لا يتواجد في بداية الوجبة ألا يأكل إلا في الوجبة التالية.. تقبلت ماري عقوبتها وانسحبت إلى حجرتها لقضاء الليل في انتظار وجبة الإفطار. وبعد ساعة سمعت نقراً خفيفاً على الباب، وفتحت الباب لتجد القس أندرسون هناك ومعه صينييه عليها البسكويت والشاي، أعطاهم لـ ماري وهو يبتسم، شكرته هامسة. ثم زحف القس

أندرسون بهدوء كما جاء.

استلزم اعتياد ماري على يد مامي أندرسون الحديدية مرور بعض الوقت. لكن مامي أندرسون كانت قد أنجزت الكثير، مما أدى إلى جعل ماري تحترمها إحتراماً عظيماً. وبعد سنة كانتا قد أصبحتا صديقتين عظيمتين رغم أن ماري كانت لا تزال لا تجرؤ على التأخر عن مواعيد العشاء.

سارت حياة ماري على وتيرة واحدة. كانت تعلم الأطفال خلال الأسبوع وبعد المدرسة أو أثناء عطلة نهاية الأسبوع كانت تزور مع بعض النساء بيوت الأطفال كما أنها ذهبت أيضاً لزيارة الملك (أيو أونستي) في جريك تاون بانتظام تقريباً وكان الملك يبتهج باستقبالها في قصره .. ورغم نشاط ماري فقد كانت تفتقد شيئاً. كان أهالي المدينة الذين تتحدث إليهم قد سمعوا رسالة الإنجيل مرات عديدة ويمكنهم أن يرووا آيات الإنجيل ويحكوا القصص المفضلة لديهم من قصص الإنجيل كما تستطيع هي أن تفعل. كانوا يقومون باستعراض كبير بمجيئهم للكنيسة يوم الأحد، مع ذلك عندما تحدثهم ماري بخصوص تضحياتهم لمختلف الآلهة ومعاملاتهم بعضهم لبعض لم يكونوا يبدون أي رغبة في التغيير. وظلوا يعتقدون أن الأرواح الشريرة هي التي تسيطر على حياتهم، ولم يكونوا يرون أي خطأ في الذبائح

البشرية أو امتلاك العبيد وقتلهم حسبما يشاؤون. أحبطت ماري وهي تحاول جعلهم يرون الحاجة إلى التغيير، وبمرور الوقت بدأت تفهم أن كثيرين من الأهالي كانوا مكرين إذ يخبرون المرسلين بما يحبون أن يسمعوه منهم ليكسبوا رضاهم في تعاملهم مع القباطنة التجار، ومع ذلك فقد ظلت تشاركهم رسالة الإنجيل محاولة أن تكون حكيمة بالنسبة لطرقتهم، لكن ما كانت تحلم به هو الإرتحال إلى الداخل ومشاركة رسالة الإنجيل مع الشعوب التي لم تكن لديها الفرصة قط لسماعها.

عرفت ماري أنه لا بد من معجزة للسماح لإمرأة غير متزوجة أن تذهب إلى مناطق غير مخططة على خرائط في كالابار. لقد أخذت في شرك بالاقتراب من الحقل الحقيقي للإرسالية كما كانت تراه، إلا إنها ظلت غير قادرة على الدخول فيه وكم صلت أن يفتح لها باب للذهاب لكن صلواتها بدت كما لو أنها ستمضي بدون إجابة. وبدلاً من ذلك أصيبت بالمalaria، ومرضت مرضاً شديداً، وفي ذلك الوقت لم يكن معروفاً ما الذي يسبب الإصابة بالمalaria ولذلك لم تكن هناك طريقة لتجنب الإصابة بهذا المرض الذي كان مصدر خشية كل المرسلين والمرسلات. وكان العلاج الوحيد هو (الكفين) وهو دواء كان قوياً جداً بحيث كان يمكن أن يقتل من يستعمله بنفس السهولة

التي يشفيه بها.

ظلت ماري تتأرجح بين الوعي واللاوعي أياماً طويلة. كانت تشعر أحياناً بالبرد الشديد حتى تصطك أسنانها ويرتجف جسدها بطريقة لا يمكن التحكم فيها .. وفي أوقات أخرى كانت تشعر بالحر الشديد لدرجة أنها كانت تعتقد أن فراشها لابد قد وضع فوق النار. إعتنت بها مامي أندرسون عناية خاصة، وأخيراً بدا واضحاً أن ماري قد نجت من الموت على يد ذلك المرض.

أخيراً جاءت مامي أندرسون ذات صباح ودخلت حجرة ماري وجذبت الستائر لتدع فيضاً من أشعة شمس الصباح الذهبية تغمر المكان وقالت: "يا له من يوم رائع." نظرت ماري إلى الضوء وكان كل ما يمكنها قوله هو "أممم.." قالت السيدة أندرسون وهي تميل فوق وسيادة ماري وتعدها: "لقد ظننا في وقت من الأوقات أننا سنفقدك يا فتاتي ويبدو أنك الآن تتحسنين باستمرار. وفي توقيت مناسب، حيث أنني قد حجزت لرحلتك على الباخرة إلى ليفربول يوم الجمعة المقبل، وجاء وقت فكرت فيه أن أذهب وألغي الحجز، لكنك ستكونين على ما يرام بحيث تستطيعين الصعود إلى ظهر السفينة. ويمكنك استخدام الرحلة

للاستشفاء، ففي الهواء الرطب ستكونين بالتأكيد شخصاً جديداً عند وصولك إلى ليفربول."

"لكن" حاولت ماري أن تقول في ضعف. قالت مامي أندرسون مقاطعة ماري: "ليس هناك (لكن) في هذا الخصوص فأنت تحتاجين إلى إجازة. أنا أعلم أنك لم تقضي سوى ثلاث سنوات وستكون أجازتك مبكرة عن موعدها بعام كامل. لكن اسكتلندا ستكون نافعة لك وفي ظرف سنة، عندما تشعرين أنك مستعدة يمكنك العودة إلى كالابار."

استلقت ماري في سكون على الفراش وكل عضلة في جسمها كانت تؤلمها وهي تحاول أن تستوعب الأخبار. سوف تعود إلى بيتها الأسبوع القادم، وهذه كانت حقيقة فقد كانت تعلم أنه لا جدال مع مامي أندرسون طالما قد استقر عزمها. لكن ماري لم تكن راجعة بالطريقة التي كانت تريدها - كمرسلة في صحة جيدة ومعها قصص مذهلة لتحكيها - بل بدلاً من ذلك هي عائدة إلى بيتها امرأة مريضة وقد بدأت تساورها الشكوك فيما إذا كانت قد عملت شيئاً حسناً على الإطلاق في كالابار. فليس لديها قصص مرسلية عظيمة لتحكيها بل فقط بعض تقارير عن الكدح المتواصل في تعليم الأولاد الحروف الأبجدية وزيارة السيدات الأميات في ساحاتهم. وكان آخر ما تريده في تلك

* * * * *

الفصل الثامن

أولد تاون

جلست ماري في هدوء في القطار على المقعد الجلدي - والقطار يهتز وهو يأخذ طريقه من ليفربول إلى داندي - وإذا مضت مناظر الريف الاسكتلندي تتطوي أمامها. حاولت أن تستريح، لابد أن يكون هناك جمهور كبير في محطة القطار ينتظرها ليرحب بها - وقد عرفت ماري ذلك من خبرتها إذ كانت جزءاً من جماعات الكنيسة الذين يحبون المرسلين العائدين خلال السنوات الماضية. وإذا كان القطار ينزلق إختلست نظرة سريعة إلى نفسها في زجاج النافذة. ورغم أنها قد استراحت خلال رحلة العودة إلى الوطن إلا إنها كانت لا تزال تبدو هزيلة وعجوز ولا تستطيع السير أو الوقوف إلا لدقائق قليلة يتعين بعدها أن تجلس لتلتقط أنفاسها وتستجمع قواها وكانت تأمل ألا يزعج منظرها الناس كثيراً وبصفة خاصة أمها وأخواتها.

أخيراً وصلت الرحلة الطويلة إلى نهايتها وتوقف القطار في محطة داندي وكان الجمهور الذي يلوح ببديه في انتظارها. شددت ماري نفسها ووقفت على رجليها وسارت في طريقها خارجة لتحبيهم. كانت أمها واقفة في المقدمة وتهاوت ماري بين

ذراعيها سعيدة بوجودها في الوطن. أخذت السيدة سليسور إينتها ماري إلى البيت مباشرة وصنعت لها كوباً من شاي ثقيل. أما أختها سوزان وجيني فقد أثارتا ضجة حولها. وبعد بضعة أيام شعرت ماري أنها بصحة جيدة تكفي لكي تغامر بالخروج والسير حتى نهاية صف المباني السكنية والعودة.

أثناء استشفاء ماري في رعاية أمها وأختيها، توصلت إلى قرار. كانت الحياة في المبنى المؤجر، الذي ليست فيه مياه جارية ودورة مياه مشتركة في حديقة خلفية وجيش من الجيران المشكوك فيهم، لم تكن حياة صالحة لأي إنسان .. لقد أرادت لأمها وأختيها أن يخرجوا من داندي إلى إحدى القرى المحيطة بالمدينة. واعتقدت أمها وأختها أنها كانت فكرة عظيمة حقاً، فلقد تدارسوها بأنفسهن فيما مضى لكنهن لم يكن يحصلن على الأموال الكافية لتحقيقها.

وإذ ظلت ماري مستقلة على الأريكة أسبوعاً بعد أسبوع توصلت إلى خطة تستطيع بها المساعدة على تحقيق الفكرة. كانت كل الرسائل في الإرساليات المشيخية المتحدة في كالابار تحصلن على مبلغ ستين جنيهاً سنوياً للإنفاق على حياتهن، ومع ذلك فقد كانت الحياة في بيت الإرسالية في ديوك تاون مكلفة فقد كان على كل واحد هناك أن يساعد في سداد

مصاريف حفلات الترفيه التي تقام للضيوف من الأوروبيين بالإضافة إلى تكاليف العدد الكبير من الخدم الذين يقومون بالطهي وتنظيف البيت .. وثمان الطعام المستورد الذي كانوا يتناولونه. كان هذا يعني أن ماري كانت تنفق كل قرش من دخلها.

بدأت ماري تحسب النفود التي يمكنها أن توفرها لو أنها لم تعيش في ديوك تاون. وكلما فكرت في الأمر كانت تتحقق أنها لن تكون سعيدة قط في مثل هذا المكان المتحضر، وتأقت للعيش في الغابة، تنام في كوخ طيني وتطهي طعامها على نار مفتوحة، وتساءلت عما إذا كانت هناك فرصة يمكن أن تسمح لها بعمل ذلك - لقد نجحت - بعد كل شيء - في البقاء على قيد الحياة خلال فصلها الأول في كالابار وهو أمر لم يستطع إتمامه الكثير من المرسلين .. وقررت أن تطلب تعيينها في مكان آخر وليكن هذه المرة في مكان أبعد - فلو أنها عاشت مثل الأهالي الوطنيين فلن تحتاج إلى إنفاق أي أموال تقريباً وعندها ستستطيع إرسال معظم الجنيهاً الستين التي تأخذها سنوياً إلى الوطن لتسدد إيجار كوخ لأمها وأختيها.

وبعد ستة شهور قضتها في الوطن شعرت ماري أنها قوية بما يسمح لها أن تسير في رحلات على الأقدام خارج المدينة في

الريف الأخضر الملبد بالغيوم والذي كان ينعم بسلام تام. وأثناء هذه الرحلات فكرت ماري كيف يمكنها إلقاء الأحاديث في الكنائس المحيطة في اسكتلندا. كان الحديث أمام جمهور كبير من البالغين أمراً صعباً باستمرار بالنسبة لها فكانت معدتها أحياناً تتقبض حتى لا تستطيع أن تتكلم على الإطلاق وكان يتولى شخص آخر الكلام نيابة عنها.

لم تكن هذه مشكلة عويصة عندما كانت تتجول مع المرسلتين اللتين كانتا معها في أدنبرة قبل سفرها إلى كالابار وكانتا تستمتعان بالحديث، وحيث كان الثلاثة يسافرون معاً فقد تركت ماري للأخريات أن يتحدثن للجماهير. أما الآن فالأمر يختلف، وحيث أنها كانت تشعر بتحسن صحتها فإن مجلس إدارة الإرسالية سوف يرتب لها أن تلقي أحاديث في مائة أو أكثر من الكنائس المحيطة باسكتلندا.

في بدايات عام ١٨٨٠ بدأت ماري جولتها للحديث وكانت تفضل لو واجهت نمراً في غابة عن مواجهة الجماهير التي تريد أن تسمع منها كل ما يتعلق بعملها المرسلي في أفريقيا. لكنها - بطريقة ما - وجدت في نفسها القوة على الكلام، وقررت أنه كان من الأفضل لو أنها قصت للمشاهدين بعض القصص. فصارت تحكي لهم عن حياة الناس في كالابار وعن الأولاد

الصغار في المدرسة الذين كانوا يتعلمون قراءة الكتاب المقدس. وعندما كان الناس يسألون ماري عما تريد عمله عند عودتها إلى أفريقيا، كانت تخبرهم بالحقيقة فقد كانت ترغب - أكثر من أي شيء آخر - أن تذهب إلى داخل البلاد حيث لم يسبق لشخص أبيض أن دخل وعاش من قبل وأن تعمل وسط الوطنيين الذين لم يسمعوا قط عن يسوع المسيح. كان شعب أوكونجونج قد جذب قلبها أكثر من أي شيء آخر، رغم أنها كانت تعلم أن فرص ترك الحقول الجيدة الترتيب وحفلات الشاي في بيت الإرسالية في ديوك تاون فرصاً ضئيلة. فلم يكن القس أندرسون يوافق على أن تغامر سيدة شابة منفردة بالدخول إلى الغابة على مسئوليتها الخاصة. كما أن زوجته مع كل أنجازاتها وشجاعته إتفقت معه.

ورغم أن ماري لم تستطع مطلقاً التغلب على عصبيتها عند التحدث إلى مجموعات من البالغين، فقد وجدت نفسها كأنها في بيتها وهي تتحدث لمجموعة الأطفال وكانت أكثر نجاحاً في هذه الأحاديث .. وفي زيارة لها لمدينة (فالكيرك) زارت ماري المدرسة المحلية حيث كانت هناك فتاتان قد ألهمتا بما قالته ماري وهما (جانيت رايت) و(مارثا بيكوك) وطلبتا من ماري

أن تراسلها. وافقت ماري ولم يخطر ببالها قط أنهما قد ألهمتهما فعلاً أن يتبعها إلى كالابار.

وأخيراً .. وبعد ستة عشر شهراً من وصولها إلى الوطن، قرر مجلس إدارة الإرسالية أنه قد حان الوقت لـ ماري لتعود إلى كالابار. كتبت ماري إلى مجلس الإدارة تلتزم منهم السماح لها بالتحرك إلى داخل البلاد أو على الأقل - خارج ديوك تاون وفي أحد المراكز الإرسالية الخالية القائمة في المنطقة. وانتظرت الرد في عصبية لكنه لم يصل أي رد. وفي هذه الأثناء نقلت ماري أمها وأختها لخارج المدينة إلى كوخ صغير مشمس في داوونفيلد وهي قرية صغيرة على مشارف داندبي. ووعدتهم أنها سترسل لهن أموالاً للمساعدة في إعالتهم بطريقة أو بأخرى. وكانت سوزان وجانيت بالطبع لازالتا محتفظتين بوظائفهما في محلج القطن.

أبحرت ماري عائدة إلى كالابار مع القس جولدي وزوجته اللذين كانا هما أيضاً في إجازة في الوطن. كان القس جولدي قد عاش في كالابار سنين طويلة وجمع وصنف قاموساً للغة الإفيك وبعض كتب الترجمة، وكانت ماري سعيدة بالفرصة لتعرفه وتفرغ ما بقلبها. أصغى القس جولدي إليها، ورغم أنه لم يقطع وعوداً إلا أنه قال أنه سيفعل ما بوسعه لمساعدتها. ولا بد أنه قد

فعل شيئاً لأنه بمجرد عودة ماري إلى ديوك تاون قيل لها أنها عينت للعمل في أولد تاون وأنها ستعمل بمفردها ويتوقع أن تتخذ قراراتها بنفسها.

إندهشت ماري فلقد كانت أولد تاون لا تبعد عن ديوك تاون إلا بثلاثة أميال لكنها أعطتها الفرصة لتحاول تطبيق أفكارها المرسلية. وكانت خطوة أقرب إلى شعب الداخل. لم تأخذ ماري وقتاً كبيراً في حزم متعلقاتها القليلة وطلب فريق من الرجال ليعبروا بها إلى أعلى النهر.

أثناء تجديف الرجال، فكرت ماري في كل ما تعرفه عن أولد تاون. لم تكن المدينة ذات تاريخ سلمي - كان هذا أمراً مؤكداً - لقد كانت واحدة من المدن الأربع الأصلية التي كان القس هوب واديل قد بدأ فيها عمله المرسل في كالابار عام ١٨٤٦ لكن لم تسر الأمور سيراً حسناً هناك. فقد كان الرئيس (ويلي توم روبنز) كما كان يسمى نفسه - رجلاً فظاً لم يكن يصغي إلى ما يقوله المرسلون بل اختار - بدلاً من ذلك - أن يتبع عادات أسلافه. وفي عام ١٨٥٥ مرض الرئيس ويلي وإذا تحقق أنه في طريقه إلى الموت أمر بتقييد كل زوجاته وبناته وعبده وخدمه بالسلاسل داخل بيته الكبير وأعطى تعليمات لإبنه الأكبر أن يقتلوا جميعاً بعد موته - وتم ذلك فعلاً وكانوا

بالمئات.. وثار غضب التجار البريطانيين في المدينة وأقنعوا القنصل البريطاني باستحضار قارب حربي عن طريق النهر وبضرب المدينة بالمدافع. وأعطى القنصل التحذيرات الكافية للمرسلين ليتمكنوا من إخلاء المدينة قبل ضربها بالقنابل - وكل ما لم تدمره القوارب الحربية من المدينة أتت عليه النار التي تبعث ذلك. ومن وقتها قام سكان أولد تاون بإعادة بناء القسم الأكبر منها لكنهم كانوا لا يزالوا يحتفظون بالحقد ضد البريطانيين. بينما ظلوا يحتفلون المرسلين لفترات قصيرة أخرى، كان صعب أن يرحب بهم بأذرع مفتوحة.

وإذ وضعت ماري قدمها خارج القارب في أولد تاون رفعت عينيها لترى جمجمة بشرية معلقة فوق عامود على التل فوقها، وفزعته .. هل كان ذلك تحذيراً مقصوداً لها؟ لم تستطع التأكد لكن سرت رعدة في عامودها الفقري وهي في طريقها إلى الكوخ الصغير المبني بالطين والمسقوف بجذوع النخيل حيث عاش آخر المرسلين من قبل - كان المبنى مهجوراً وفارغاً وقذراً. بدأت ماري والرجال الذين أحضروها إلى أعلى النهر العمل ليجعلوه بيتاً مرة أخرى وانتهوا من ذلك بعد حوالي ساعة. كانت أوراق الشجر الجافة قد أزيحت عن الأرضية بجرادل من ماء النهر وكان سرير صغير قد تم وضعه مقابل

الحائط الأسود. وقد تم إعادة تركيب الباب على مفصلاته - وأصبحت ماري سعيدة. وقالت للرجل: "أشكرك شكراً جزيلاً. يمكنكم الآن أن تعودوا إلى ديوك تاون وتخبروهم أنني قد أصبحت مستقرة."

ولم يكن هناك الكثير بعد ذلك مما تحب ماري أن تعمله قبل أن تبدأ عملها المرسلي. لقد قررت لتوها أن تعيش أشبه بأحد الوطنيين بقدر ما تستطيع. وقد اختصر هذا الكثير من العمل الإضافي الذي كان يمكن أن يكون لازماً لها للعيش على الطريقة الأوروبية. كانت تأكل الطعام الرخيص الذي تشتريه من السوق المحلية مثل الذرة الرفيعة والبقول والفواكه والدجاج والسّمك من النهر وزيت النخيل. وبالطبع لأنها كانت تأكل أطعمة محلية فكان من السهل تخزينه وليس مثل الزبد ولحم الخنزير ولحم البقر والبيض والدقيق والسكر الذي كانت تأكله في ديوك تاون والتي كان يجب تخزينها بعناية للحفاظ عليها بعيداً عن الرطوبة والحشرات.

لم تعد ماري في حاجة أيضاً إلى تخزين مثل هذه الأطعمة حيث كان باستطاعتها الذهاب إلى السوق المحلي يومياً ولتشتري الطعام الطازج كما استطاعت استخدام فتاة صغيرة من الأهالي لتطهي لها طعامها دون الحاجة إلى تدريبها لعمل فطائر الرعاة

أو غيرها. كان الشيء الوحيد الذي لم ترد ماري الاستغناء عنه هو قدح الشاي في الصباح. وسمحت لنفسها بهذه الرفاهية الوحيدة.

كان المال الذي توفره بعيشها بهذه الطريقة ترسله إلى الوطن ليساعد في إعالة أمها وأخواتها. وبالتدريج بدأ أهالي أولد لاند يشعرون بالدفء تجاه ماري. وكانت قد عرفت بعض الأولاد المحليين الذين كانوا يحضرون مدارس الأحد في ديوك تاون في مختلف الأوقات، وعقدت صداقات مع عائلاتهم. كان همها الأول أن تستعيد هؤلاء الأولاد إلى المدرسة. فقامت بتأسيس فصل دراسي في أولد تاون وكذلك في القرى القريبة (كوا) و(أكيم). كما كانت لديها أيضاً كمية من الأدوية استخدمتها في علاج الشعب، وقبل أن يمر وقت طويل كانت أيضاً تستدعى لفض المنازعات بين الشعب المحلي.

وفي أحد الأيام، ليس بعد وصولها إلى أولد تاون بكثير، فتحت ماري باب كوخها فوجدت هناك طفلاً ضئيل الحجم ملقى على الأرض نائماً. وإذ التقطته وهددته بين ذراعيها تلفتت حولها لترى من الذي ترك الطفل هنا ولماذا؟ ولم تجد مفتاحاً لهذا اللغز. أمسكت الطفل في إحدى يديها وأشعلت النار التي كانت قد خمدت في الليلة السابقة وصنعت قدحاً من الشاي

ووضعت بعضاً منه في فم الطفل بملعقة غير عالمة بما يمكن أن تعمله بعد ذلك.

وجاءت مساعدة ماري إذ ارتفعت الشمس في الفضاء. وقالت لها: "إن لديك طفلاً" ولم يكن في صوتها أي رنة استغراب. قالت ماري: "نعم .. لكنني لا أعلم من أين جاء." هزت الفتاة كتفيها وهي تجلس القرفصاء بجوار النار وقالت: "إنك امرأة إلهية .. وسيحضر إليك أطفال كثيرون." لم يستغرق الوقت الكثير من المناقشة. كانت ماري تعلم من معيشتها في ديوك تاون أن هناك أطفالاً كثيرون لا يلقون أية عناية في بعض الأوقات في القرى. فقد كانت الحياة الإنسانية ليست بذات قيمة عالية في كالابار وأن أحداً لم يكن يهتم بتربية طفل امرأة أخرى. فلو حدث - مثلاً - أن توفيت أم من العبيد كان أطفالها الصغار يقتلون ويدفنون معها. كان الناس يعتقدون أن أطفال العبيد لم يكن لهم قيمة بحيث لا تساوي حياتهم عناء تربيته. والأسوأ من هذا كان قتل التوائم. فقد كان مولد التوائم في كل كالابار ينظر إليه على أنه لعنة شريرة. وجرت العادة أن يقتل التوأمان في خلال ساعات من ولادتهما وتقتل الأم أيضاً أو تطرد خارج بيتها، ولما كان كل من يحاول مساعدة الأم يعتبر ملعوناً كذلك، فإن معظم هؤلاء الأمهات اللواتي لم يقتلن يمتن

عادة خلال أسبوع أو إثنين.

خمنت ماري أن أم ذلك الطفل قد ماتت وقام أحد أعضاء الأسرة بإحضاره إليها لتربيته. وفي تلك الليلة شكرت ماري الرب لسماحه بإنقاذ حياة ذلك الطفل، ورغم كونه قد افترق عن أمه وعن المورد الطبيعي لللبن، فقد بدأ الطفل ينمو وسرعان ما صارت ماري تأخذه معها في جولاتها أيام الآحاد.

كانت ماري تستأجر في أيام الآحاد ولدين ليحلا عاموداً مربوطاً فيه جرس وعندما تصل إلى إحدى القرى كانت تدق الجرس وتنتظر وصول وتجمع الناس. وفي حالة عدم وصولهم كانت تذهب وتبحث عنهم وتأتي بهم إلى مكان الاجتماع .. فكانت تضع مفرشاً من القماش فوق أي سطح مستوي وتفتح كتابها المقدس وتعظ. وبعد الخدمة كان الناس يلتمسون من ماري أن تزور المرضى. وكان من الطبيعي أن يرخي الليل سدوله قبل أن تنتهي ماري جولتها وتعود إلى أولاد تاون حيث كانت تعقد خدمة دينية أخرى. ولكنها هذه المرة في المكان الرئيسي للإرسالية وكانت معظم القرية تحضر لتري الرسالة الصغيرة ذات الشعر الأحمر وهي تتحدث إليهم بلغتهم المحلية.

وكما أشارت مساعدة ماري تماماً، بدأ أطفال كثيرون يأتون بعد الطفل الأول حتى امتلأ كوخها ذو الحجرة الواحدة بفيض

من الأطفال في السلال المجدولة .. وقامت ماري برحلة خاصة إلى ديوك تاون لتطلب المساعدة وكانت خطتها التوصل إلى امرأة أخرى غير متزوجة لتأتي وتساعد في العناية بالأطفال لتستطيع هي أن تواصل الوعظ وعلاج المرضى. ويمكن لـ ماري مساعدة الرسالة الأخرى في إنشاء ملجأ للأيتام وتدريب بعض الفتيات المحليات كمساعدات.

عندما وصلت ماري إلى ديوك تاون علمت أنه لن تكون هناك مساعدة لها في المستقبل القريب. فقد كان المرض يستهدف حياة المرسلين. فقد وصلت ماري في الوقت الذي سقطت فيه مامي أندرسون مريضة، وكان القس أندرسون قد مرض أولاً وكانت مامي ترعاه وتمرضه بلا كلل تماماً كما فعلت مع ماري عندما مرضت بالمalaria. وعاش القس أندرسون لكن المجهود الذي بذلته مامي في تمريضه عجل بوفاتها. وكانت وفاة مامي صدمة أصابت الجميع بما فيهم ماري، فقد كان الجميع يفترضون أن مامي يمكن أن تتغلب على أي شيء .. وبعد وفاتها بفترة قصيرة مرضت السيدة سزرلاند - وهي المرأة التي ضمت ماري تحت رعايتها عندما جاءت إلى كالابار لأول مرة - وماتت. بكى ماري بصوت مرتفع في جنازتها. ولأول مرة أدركت ماري لماذا سميت كالابار مقبرة الرجل

الفصل التاسع

ضييفة شرف

في أواخر عام ١٨٨٢ جاء رجلان من مجلس إدارة الإرساليات الأجنبية في اسكتلندا لتقييم عمل كل من الإرسالية والمرسلات في كالابار وقضيا بضعة أيام مع ماري من ضمنها يوم أحد قاما خلاله بمرافقتها خلال جولاتها المعتادة في الغابة لزيارة القرى المجاورة من الفجر حتى المساء. وفي نهاية إقامتهما كان الرجلان قد أنهكا تماماً، وكتب أحدهما عن ماري في تقريره يقول: "إن كفاحها متعدد الأوجه لكنها تكابد العناء بكل سرور وهي تستمتع بالصدقة غير المتحفظة والثقة التي يمنحها لها الناس كما أن لها نفوذاً عظيماً عليهم."

بعد أن ترك الرجلان القادمان من الإرسالية ماري، بدأت تشعر بعدم الراحة. فهي تعيش في أولد تاون على حافة الغابة التي لم تكتشف بعد والمكتظة بأناس كانت تريد أن تعلمهم وتساعدهم، فاستأجرت بعض الفتيات المحليات للعناية بأطفالها وبدأت تقوم برحلات شاقة تتزايد طولاً خلال الغابة وطرقها التي تقود إلى داخل البلاد. وكانت تذهب أحياناً بمفردها، وفي تلك الرحلات كانت تضع في ذهنها توجيهات السيدة سززلاند

التي كانت قد أعطتها لها عندما وصلت إلى كالابار لأول مرة. وعليه فقد كانت وهي سائرة تعمل أصواتاً كثيرة حتى لا تفاجيء الحيوانات المفترسة، وخاصة النمر الأبيض الذي لا يهاجم - عادة - إلا إذا أخذ على غرة. فكانت ماري ترنم ترنيمات بأعلى صوت مستطاع، وتصفق بأيديها وتخط بأرجلها.

سبقت ماري سمعتها إلى القرى. وغالباً ما كانت تجد أن الناس في القرى التي تزورها قد سمعوا فعلاً عن الأم البيضاء ذات الشعر المشتعل. رغم أن شعرها لم يعد طويلاً حسب الموضة، كما كان عندما وصلت أولاً إلى كالابار حيث أنها وجدت أنه من الصعب الاحتفاظ بشعر طويل مغسول ومشبك بالمشابك في مثل هذه البيئة. لذا فقد قامت بقصه قصيراً. وذهلت باقي المرسلات لذلك. لكن ماري ما كانت تهتم، فقد كان ذلك الوضع عملياً. وكان هذا هو كل ما يهمها.

في أوائل عام ١٨٨٣ تسلمت ماري دعوة من الرئيس أوكون لزيارته وإخبار شعبه عن (إله الرجل الأبيض). كان الرئيس أوكون يعيش في إباكا على بعد حوالي عشرين ميلاً غرب أولد تاون على طول الدلتا المليئة بالمستنقعات لنهر كروس ريفير. قبلت ماري الدعوة بلهفة وبدأت في إعداد الخطط، فأرسلت كلمة إلى ديوك تاون قائلة أنها ستحتاج قارباً

وعدهداً من المجدفين لينقلوها إلى إباكا ثم يعودوا إليها بعد أسبوعين. كانت تخطط أن تأخذ الأطفال الأربعة الكبار معها تحت رعايتها كما أعدت ترتيبات بالنسبة للأطفال الأصغر سناً للعناية بهم خلال غيابها.

سمع صديق ماري الملك أيو عن خطتها وأرسل رجاله إليها محاولاً إثناءها عن الذهاب مشيراً إلى أن الدعوة يمكن أن تكون خدعة بحيث يمكن أسرها بسهولة أو أنها يمكن أن تؤكل بواسطة التماسيح وهي في الطريق. أو يمكن أن يهاجم قاربها بواسطة أفراس النهر. لكن ماري كانت مقتنعة أنها يجب أن تذهب. وفي النهاية أخذ الملك أيو على تزويدها بقاربه الملكي الخاص ومجدفين لنقلها إلى القرية. وقال لماري: "لست أريدك أن تصلي إلى هناك كغريبة لا إسم لها بين أناس غرباء، بل كسيدة وكأم لنا."

خجلت ماري من كثرة كرم الملك وزاد ذهولها أكثر وأكثر عندما وصل قاربه أخيراً إلى أولد تاون. كان لدى الملك أيو حوالي أربعمئة قارب لكنه أرسل أكبرها وأفخمها زينة لنقل ماري. كان طول القارب أربعين قدماً وعرضه حوالي خمسة أقدام وفي الوسط كان هناك ملاذ صغير حيث سيكون في قدرة ماري والأطفال أن يستريحوا في الظل ويناموا قليلاً أثناء

الرحلة. بل إن الملك كان قد أمر بدهان القارب حديثاً باللونين الأصفر والأحمر اللامعين، الأمر الذي ربما كان السبب في وصوله متأخراً في أوائل المساء بدلاً من فترة بعد الإفطار كما سبق أن وعدها.

رتبت ماري قطع منقولاتها القليلة في القارب ثم وضعت ثمانى جوانات من الأرز كهدية إلى الرئيس أوكون وحملتها على ظهر القارب وفي النهاية رفعت أطفالها الأربعة ثم تسلمت هي. ورغم أن الوقت كان متأخراً فقد بدأوا رحلتهم إلى إياكا.

وقف شعب أولد تاون على حافة الماء وهم يودعون ماري وقالوا: "كوني على حذر ولا تنقي بهم، ولو قتلوك فسوف ننقم لمقتلك." كان الوداع مبهجاً. وكانت ماري سعيدة عندما غابت أولد تاون عن عينيهما. كانت تعلم أن الناس يحذرونها لاهتمامهم بها. لكنهم قد بدأوا يجعلونها تشعر بالتوتر.

كان للغابة صبغة مرعبة في الليل فقد كانت مليئة بأصوات لا يمكن تحديد هويتها، التي حاولت ماري ألا تفكر فيها. واختارت بدلاً من ذلك أن تركز على أغنيات المجدفين الرتيبة التي كانوا يغنون بها خلال الليل. كانت هناك ثلاثة طبول تحفظ الوقت ورجلاً في مؤخرة القارب كان يؤلف الكلمات التي عليهم أن يتغنوا بها: "هو.. هو.. إنا قد نلنا الشرف. هو.. هو..

أمناء البيضاء معنا. هو.. هو.. سنمضي قدماً خلال الليل." سرعان ما نام الأطفال كما رقدت ماري على أحد أجولة الأرز ثم نامت هي أيضاً.

جاء شروق الشمس الأفريقية اللامعة صباح اليوم التالي بسرعة يبشر بها صوت فيل بعيد وسرب من الببغاوات الملونة فوق الرؤوس. فركت ماري عينيها الناعستين وهي تشعر بالامتنان للرجال من أجل تجديدهم طوال الليل حتى يصلوا بها إلى إياكا. وإذا استدار القارب حول منحني في النهر ظهرت القرية وهي جائئة على جانب النل، وبعد دقيقة واحدة كان القارب يحسك بقاع مياه النهر الموحد .. أعدت ماري نفسها للنزول من القارب. وهنا صاح قائد المجدفين قائلاً: "لا لا أيتها الأم البيضاء .. يجب أن تظلي حيث أنت." وقفز إلى الماء لكي يصل إلى ماري وقال: "إن علينا أن نحملك." وأشار إلى رجل آخر وهو يقول ذلك.

ابتكر الرجلان مقعداً من تشبيك أيديهما معاً لكي تجلس عليه ماري ثم رفعاهما خارج القارب حتى الأرض اليابسة، ولكنهما لم يضعاهما على الأرض. ولدهشة ماري حملها عبر القرية حتى وضعاهما أمام باب الرئيس. وقال أحدهما وهو يضعها على الأرض: "يجب أن يرى الشعب أي شرف لنا أن تكون الأم

تأثرت ماري لكنها لاحظت أن معظم القرويين الذين كان المجدفان يحاولان المرور وسطهم قد هربوا بعيداً واختبأوا عندما رأوها. ومرة أخرى وجدت نفسها في مكان لم ير فيه الناس من قبل أي شخص ذا عيون زرقاء وشعر أحمر وبشرة وردية ينتشر فيها النمش. مع ذلك فقد كانت متأكدة أن حب استطلاعهم سيتغلب على خوفهم في النهاية وأنهم لابد سيزحفون عائدين ليروا ما عمله.

قام خادم الرئيس أوكون بإعلان دخولها هي وأطفالها الأربعة الذين ساروا في ذيلها إلى الداخل. إستمعت ماري إلى المجدفين وهم يحاولون التأثير في حراس الرئيس بالقول أنه يكون من الأفضل له العناية بها وإلا ستكون هناك مشاكل عندما يعودون بعد أسبوعين لاستردادها.

شعر الرئيس بالإمتنان لحضور ماري ولم يدخر وسعاً في جعلها تبقى مستريحة بقدر الإمكان بقدر ما يستطيع على الأقل. قضت ماري معظم اليوم وهي تأكل وتتحدث عن الكتاب المقدس مع الرئيس أوكون والاستعداد لتلبية الاحتياجات العلاجية الطبية لأهل بيته. فشقت عدداً من الدمامل وطهرت وضمدت عدداً من

الجروح المفتوحة بل إنها قامت بخياطة جرح حتى يمكن أن يشفى بطريقة صحيحة.

وأثناء قيامها بتضميد الجروح لاحظت ماري أنها كانت على حق فقد بدأ الناس يقتربون إليها ويراقبونها. كانوا في البداية عدداً قليلاً لكنه استمر يتزايد حتى بدا كما لو كانت القرية بأكملها تتبعها من كوخ إلى آخر، وكانت إحدى زوجات الرئيس تقدم تقارير عن كل ما تقوم به ماري لأولئك الذين كانوا بعيدين في الخلف ولا يستطيعون رؤيتها بأنفسهم. شعرت ماري أنها قد أحضرت تسليّة مجانية إلى القرية، إن لم يكن أي شيء آخر.

عندما بدأ الليل يرخي سدوله قاد الرئيس أوكون، ماري إلى غرفته الخاصة حيث كان عليها أن تقضي الليل فيها هي وأطفالها .. لم يكن للحجرة أي باب أو شباك بل مجرد فتحات حيث كان يجب أن تكون. وسرعان ما بدأت رؤوس سوداء تطل عليها من الفتحات وتختفي، وكانت تراقبها وهي تعد نفسها والأطفال للذهاب للفراش .. قامت ماري بتعليق بطانية على فتحة الباب أثناء خلع ملابسها ولبس ملابس النوم لكنها قامت بنزعها مرة أخرى فيما بعد. إذ كانت لا تريد أن تبدو كما لو كانت تخفي شيء.

لم تكن ماري تنتهي من الترنيم للأطفال حتى يناموا، وإذا

إثنان من زوجات الرئيس أوكون السمينات قد دخلتا إلى الكوخ وهما تضحكان وتلطمان بعضهما البعض، وفي الحال علمت ماري سبب مجيئهما. فسوف تقضيان الليل معها لتدفئتها بالنوم إلى جوارها .. كانت تلك عادة في كالابار أن ينام الضيوف المكرمين بين زوجات الرئيس البدنيات والجيدات الدهان.

زحفت موجة من الاشمئزاز على ماري لكنها علمت أنهم لا يقصدون بها سوءاً. فرسمت ابتسامة على وجهها ورحبت بهما في الحجرة. ثم نامت ونامت الزوجتان كل واحدة من جهة. كادت ماري تختنق من رائحة زيت جوز الهند الثقيلة التي أحاطت بهم جميعاً، لكنها شعرت أنه من المهم مراعاة واحترام عاداتهم طالما أنها لا تتعارض مع الكتاب المقدس.

راحت زوجتا الرئيس في النوم فوراً وأخذتا تشخران بصوت عال بينما استلقت ماري بينهما كالسندوتش. وأثناء نومهم هناك كانت ماري تتساءل ماذا يمكن أن تقول الكنيسة التي في داندي لو أنهم استطاعوا أن يروها الآن أو حتى كيف سيكون رد فعل المرسلات في ديوك تاون. كانت ماري تعلم أن نظرتها للأمور تتغير. فقد بدأت تغض النظر عما كان مقبولاً في اسكتلندا وتقبل ما هو مقبول في كالابار. وإذا سمح لها الله

أن تعيش لمدة أطول كانت تعلم أنها ستشعر أنها في بيتها بين الأفارقة أكثر من شعورها كذلك وهي وسط الشعب الإسكتلندي. وعند منتصف الليل شعرت ماري أنها تختنق، فبدون وجود باب أو نافذة لم يكن هناك هواء متحرك في الحجرة. لقد كانت تستطيع أن تسمع الفئران التي تجري فوق السطح المصنوع من القش والحيوانات المجهولة الهوية التي تشمشم وتنفخ بأنوفها في الساحة .. وأخيراً راحت في النوم قبل بزوغ الفجر بقليل.

ورغم قلة النوم، مضت الأيام سريعاً. واستمرت ماري في تضميد الجروح وعلاج المرضى. فضلاً عن عقد اجتماعات الخدمة الكتابية كل صباح وكل مساء. وكان الأهالي يرهبون ويندهشون من طريقة كلامها بلغتهم. بل إن بعض الناس كانوا يحضرون لمجرد سماع امرأة بيضاء وهي تتكلم بلغة الإيفك.

وفي الليلة السادسة اكتسحت عاصفة القرية بدون سابق إنذار، فاستثار كوخ الرئيس بالشرارات المذهلة الصادرة عن البروق، وزمجرت الريح خلال الباب وقام الأطفال الأربعة بالتسلق إلى فراش ماري ودسوا أنفسهم بين ماري وزوجتي الرئيس. كانت هناك أشياء تتحطم وتتخبط حولهم لكن ماري علمت أن البقاء في الكوخ أكثر أمناً من المغامرة بالخروج. وفجأة هبت لفة ضخمة من الريح وأزاح سقف الكوخ وأطاح

به الهواء إلى حيث اختفى .. ووجدت ماري والأطفال وزوجتي الرئيس أنفسهم وقد غمرتهم مياه الأمطار، وبدأت الزوجتان تتسبثان بـ ماري كما كان الأطفال يفعلون وعلمت ماري أنها لا بد أن تسيطر على الموقف. فصاحت بشجاعة بصوت أعلى من صوت الريح وقالت: "تعالوا يا أطفال دعونا نرنم." وبدأت ترنم إحدى ترانيمها المفضلة وسرعان ما اشترك الجميع معها وعندما انتهت العاصفة كان كل شخص قد بح صوته من الترنيمة. وكان الظلام ما زال باقياً لكن إحدى خادמות الرئيس أحضرت فانوساً ذا فتيل للإضاءة لهم. وبعدها قام الخدم بسحب قطعة من القماش فوق الأعمدة الخشبية التي يقوم عليها السقف لتكوين سقف مؤقت.

كان صندوق الملابس الذي أحضرته ماري معها لا يزال جافاً، ووجدت ماري غياراً لكل طفل من الأطفال. وأجلستهم على الفراش ومعهم زوجتي الرئيس لحفظهم في حالة دفاء، ثم قامت بتجفيف نفسها وتناولت جرعة من الكفيين إذ شعرت يقيناً أن الدش الذي أخذته تَوَّأ لا بد أن يأتي بنوبة أخرى من الملاريا. وقد كانت على حق، فما أن جاء الصباح حتى كانت كل الأعراض الكلاسيكية للملاريا قد ظهرت عليها . الأسنان المصطكة والعظام المتألّمة وعدم القدرة على التركيز.

كانت زوجنا الرئيس اللتان لم تعانيا أي نتائج مستديمة من العاصفة، شديداً الإنزعاج بسببها. وأعطتهما ماري تعليمات فيما يتعين عمله مع الأطفال إذا ماتت هي. وتناولت جرعة أخرى من الكينين وان্দست في الفراش مرة أخرى لتنام. لم تتعافى ماري إلا بعد ثلاثة أيام، بحيث استطاعت أن تخرج من الفراش وتترك الكوخ، وعندما أفرغها ما رآته من الخراب الذي حل بالمكان بسبب العاصفة. فقد كانت كل الأكواخ قد أُلقت وبعضها قد تحطم تماماً وكانت شجرات ضخمة من أشجار الكابوك قد اقتلعت من جذورها وسقطت بفعل الرياح وكثير من القوارب قد ارتطمت وتحولت إلى حطام أو جرفت إلى أسفل.

وفي وسط كل هذه الفوضى بدأت ماري تشعر أن هناك شيء ما خطأ، كانت قد سمعت بعض المعلومات التي تناقلتها النساء فيما بينهن همماً، وأخيراً تمكنت من الوصول إلى إحداهن التي أخبرتها بما يجري. لقد أحدثت العاصفة فتحة في سور البيت الكبير الذي تقيم فيه إحدى الزوجات الكبيرات لواحد من كبار رجال القرية. وكانت زوجات الرجل الثلاثين يقمن هناك. وقد قامت إثنان من أحدث الزوجات - وعمر كل منهما ستة عشر عاماً - بالهرب عن طريق تلك الفتحة وقضتا الليل مع أحد شباب القرية، وتم اكتشافهما. وعقد اجتماع خاص كما

هو معروف لتدارس العقوبة. وبالطبع كان مسموحاً فقط لرجال القرية أن يشتركوا في الاجتماع الخاص لذا بقيت النساء ينتظرن في قلق ليعرفن ماذا ستكون العقوبة .. وانتظرت ماري معهن.

وبعد ساعة أو نحوها وصل الاجتماع إلى نهايته .. ولم تضيق ماري الوقت في طلب مقابلة الرئيس أوكون وسألته وهي تتوجه إلى النقطة المطلوبة مباشرة: "ما الذي قررت مع البنيتين؟" فأجابها الرئيس مباشرة - الذي ما كان يمكن أن يحتمل أن توجه له أياً من زوجاته مثل هذا السؤال - قائلاً: "لقد ارتكبن خطأ وستحصل كل منهما على مائة جلدة."

سقط فك ماري ذهولاً، فقد كانت تعلم أن مائة جلدة كانت لا تعني أقل من الموت البطيء الطويل بالنسبة للبنيتين. فسوف يتمزق ظهرهما وأرجلهما إلى قطع بواسطة السوط وسوف يقتلها التعفن الذي سيصيب الجروح بكل تأكيد. وكان على ماري أن تفكر في طريقة لإنقاذهما.

أمرت ماري بحزم وبأقصى ما لديها من صوت قاطع قائلة: "أدع الاجتماع العام مرة أخرى فأني أريد أن أتكلم دفاعاً عن البنات." وحبست أنفاسها منتظرة لترى ما سيكون عليه رد فعل الرئيس. أجاب الرئيس أوكون: "أنا لا أستطيع أن أفعل هذا الآن الحكم قد صدر فعلاً." فقالت ماري متسائلة: "هل طلبت مني

الحضور إلى هنا والتكلم إليكم عن الله؟" أجاب الرئيس: "نعم" استمرت ماري قائلة: "حسناً إذاً. فأنا أريد أن أخبركم بما يراه الله في تصرف البنات وفي عقوبتكم."

بدا الرئيس أوكون مرتبكاً للحظة، وعلمت ماري أنها قالت الكلام الصحيح. أخيراً تنهد الرئيس وقال: "حسنٌ جداً، لكن الرجال لن يسروا بسماعك." وبعد ربع ساعة كانت ماري جالسة في كوخ الاجتماع العام والفتاتان جالستين مقابلها، وللحظة قصيرة فكرت ماري في الموقف الخطير الذي وضعت نفسها فيه. لكن كان اهتمامها بأمر البنيتين يعطيها شجاعة.

ثم تتحننت وقالت بصوت عال: "أريد أن أخبركم أيتها البنات أنكما قد جلبتما العار على بيت زوجكما فما كان لكما أن تهربا في تلك الليلة كما فعلتما." بدا على الفتاتين أنهما قد صدمتا بما قالته ماري بينما جلس الرجال أكثر انتصاباً وهم يبتسمون ويهزون رؤوسهم كأنهم يقولون "إن إله الرجل الأبيض يتفق معنا". لم تدم إبتسامة الرجال طويلاً، فقد استدارت ماري نحوهم بعد ذلك وقالت: "إنه من الشائن أن تستمروا في أخذ الفتيات الصغيرات لكم زوجات، ولديكم من النساء والأطفال ما تشاؤون وتحتاجون. إن النساء الصغيرات يجب أن يعطين زوجات لشباب القرية ولا يحتجزن لبقية حياتهم في ساحة ينتظرن أحد

الرجال الكبار السن ليستدعيهن."

إحمر وجه ماري خجلاً وهي تتحدث إذ كانت تعلم، وهي القادمة من بريطانيا الفيكتورية. أنها تتكلم في أمور غير مهذبة لم تكن امرأة حسنة التربية تستطيع أن تتكلم بها في مواجهة الرجل. لكنها ذكرت نفسها أن هذه أفريقيا وهي تختلف.

بدأ الرجال في الصباح في وجه ماري وهي ترد على صياحهم بصياح ضدهم. وبعد ساعة هدأت الطباع ووافق الرجال على تخفيض العقوبة ضد البنات إلى عشر جلادات لكل منهما. وكان هذا هو أقصى ما يمكن الوصول إليه من تخفيض.

شكرت ماري الرجال وزحفت إلى كوخها. لقد أصبح لدى الفتيات فرصة على الأقل للحياة الآن لو أنهما حصلتا على عناية فورية ومباشرة. وإذا قامت ماري بفتح حقيبة الأدوية الخاصة بها وأخرجت بعض الأربطة وزجاجة من زيت العنبر الشديد المفعول في قتل الألم. سمعت ماري الجمهور وهو يتجمع ثم سمعت فرقة الصوت المصنوع من الجلد الخام فتوقفت متسمة في مكانها وهي تعد ١.. ٢.. ٣. ترى هل سيحترم الرئيس أكون كلمته؟ كانت الصرخات الأولى للفتاة تخرق الهواء ٨.. ٩.. ١٠. وتوقفت الجلادات. رفعت ماري صلاة شكر بين أنفاسها وأسرعت خارجة من الباب.

كان عدد من النساء يحملن بينهم الفتاة الأولى وهن يسحبنها سحباً إلى ماري التي أشارت لهم للدخول إلى الداخل حيث مددت البنت العارية على فراشها. ثم مضين ليسترجعن الفتاة الثانية التي كانت تصرخ مع كل جلدة من الصوت. مضت ماري إلى العمل مباشرة فوضعت ملء ملعقتين من زيت العنبر في فم البنت ثم بدأت في تضميد الجراح. وصلت الفتاة الأخرى وهي تصرخ وتتلوى من الألم ووضعت إلى جانب الفتاة الأخرى ووجهها إلى أسفل وفي خلال دقائق قليلة تحولت الأرضية إلى بحر من الدماء.

قامت ماري بتنظيف الجروح الطويلة والعميقة التي قطعها الصوت في ظهر الفتاتين وأرجلهما ثم قامت بربط الجروح بأفضل ما تستطيع.

ظلت الفتاتين مستقلقتين في حجرة ماري التي قامت بالعناية بهما خلال بقية زيارتها إلى إياكا. وعندما حان الوقت لرحيلها قامت بتدريب إحدى زوجات الرئيس كيف تغير الضمادات وتعتني بالفتاتين. وتمنت ماري أن تستعيد الفتاتين صحتهما تماماً. رغم أنها كانت غير واثقة تماماً من أن الرجال لن يعقدا اجتماعاً خاصاً آخر ويغيروا قرارهم بشأن العقوبة بعد رحيلها. وبعد أسبوعين في إياكا المدة التي كما لو كانت بالنسبة لـ

ماري شهراً كاملاً، حان الوقت لها أن تعود إلى أولاد تاون فالأطفال كانوا يحتاجون إليها. وقد جاء الوقت للبدء في الدراسة مرة أخرى. ورأى الرئيس أوكون أن تسافر ماري إلى بيتها في قاربه كما دعاها أيضاً أن تعود في أقرب فرصة ممكنة وأكدت له ماري أنها ستعود فعلاً وسريعاً لكن المرض قد يغير خططها مرة أخرى.

الفصل العاشر

جانني

صرخت النساء المحليات بصوت مرتفع ومددن أيديهم ليلمسن ماري وهي تنقل إلى القارب، وكان ذلك في مارس عام ١٨٨٣ حين مرضت ماري واشتد عليها المرض بحيث لم تستطع أن تدبر أمرها وتنتظر حتى ينتهي المرض، فإنها كانت تحتاج هذه المرة لكي تسترد صحتها أن تكون في ديوك تاون حيث يمكن أن تتلقى الرعاية الطبية الصحيحة.

وفي خلال الشهور الماضية مات اثنان من المرسلين في كالابار أحدهما كان (ساميول أديجاري) أحد أصدقاء ماري القريبين. وكان قد ذهب ليستكشف أجزاء أبعد من نهر كالابار وحاول الذهاب إلى (أتام) على بعد ١٦٠ ميلاً في الداخل وفي طريق عودته مرض، وكان عليه أن يتوقف ويستريح في إحدى القرى، وللأسف فإن السرير المعلق الذي كان ينام فيه انقصف أثناء الليل وطرحه على الأرض مما أدى إلى إصابته في ظهره. ولم يعرف ملاحوه ماذا يفعلون فقاموا بشحنه في القارب وجدفوا طوال الطريق عائدين إلى ديوك تاون لكنه مات بعد نقله مباشرة وقبل أن يستطيع إخبار أي إنسان بما رآه هناك في أعلى النهر.

وبعد ذلك بقليل مرض الدكتور ماكينزي ومات وكان يتأرجح بين المرض والصحة طوال عام كامل تقريباً. وكان كثيراً ما ينقل بجانب فراش أحد المرضى لكي يشخص حالته ويصف العلاج المناسب.

شعرت ماري بنفسها وهي توضع برفق في قاع القارب استعداداً للرحلة إلى أسفل النهر حتى ديوك تاون. وكانت لتوها قد عملت الترتيبات المتعلقة بما يجب عمله للأطفال في حالة عدم عودتها باستثناء طفلة واحدة. فقد كانت ماري منذ أسبوعين تجري عبر الغابة في منتصف الليل راجية أن تصل إلى توأمين قبل أن يقتلا. كانت سيدة من قرية مجاورة قد خاطرت بحياتها لكي تخبر ماري عن مولدهما. وقد وصلت ماري في الوقت المناسب تماماً إذ كانت هناك فتحة تفتح في الجدار الخلفي للكوخ ليخرج منها التوأمين. حيث أن القرويون كانوا يعتقدون أنه سوء حظ إضافي أن يحمل التوأمين خارجاً عن طريق باب الكوخ فقد تم عمل مخرج لهما على أن يعاد سد الفتحة بالطين فيما بعد. كان التوأمين ما زالا على قيد الحياة، واندفعت ماري إلى داخل الكوخ وهي تصرخ بجنون وخطفت الولدين وأسرعت تجري عائدة إلى الغابة تاركة خلفها مجموعة مذهولة من الأقارب الذين جاءوا ليشهدوا مقتل التوأمين.

لم يتبع الأقارب ماري وهي في طريق عودتها إلى أولد تاون فقد كان السفر في الغابة في ظلام الليل أمراً خطيراً جداً. ومع ذلك فإن ماري لم تهتم بل أخذت التوأمين ودستهما بسلام تحت ذراعيها، وكانت تصلي وتردد المزامير وهي تجري. وعندما وصلت إلى كوخها في أولد تاون أوقدت مصباح فتيل وفحصت التوأمين - ولد وبنت - كلاهما صغير الجسم لكن بصحة جيدة. وقامت بطحن بعضاً من الموز الأفريقي ومزجته بالماء المغلي لكي تطعم الولدين ثم قامت بلفهما معاً ووضعهما بجانبها في الفراش.

ترعرع التوأمين، وكانت مساعدة ماري تساعد في العناية بهما. على أن ماري إرتكبت خطأ إذ تركت الطفلين في الكوخ ذات يوم أحد، عندما كانت تقوم بالوعظ في جولاتها في القرى المحيطة. وأثناء غيابها كانت عائلة التوأمين قد خدعت مساعدتها بطلبهم استعادة الطفل الذكر، وبعد ساعة واحدة وجد الطفل مخنوقاً حتى الموت على ممر الغابة.

ولما علمت ماري بهذه الأخبار بكّت ونذرت ألا تدع التوأمين البنت تغيب عن ناظرها. وما هي الآن رغم كونها مريضة بهذا الشكل تصر على أن تذهب معها جاني - كما أطلقت على الطفلة - إلى ديوك تاون.

عندما وصلت ماري إلى بيت الإرسالية الكبير في ديوك تاون كان هناك الدكتور (هيون) منتظراً مقابلتها. وكان طبيباً جديداً قد وصل حديثاً إلى كالابار ليدرس تحت إشراف الدكتور ماكينزي. وبدلاً من ذلك وجد نفسه يحل محل الطبيب الكبير. عالج الدكتور هيون ماري بأفضل ما يمكنه. لكنه كان قليل الأمل في نجاتها .. وعندما وصلت الباخرة الشهرية من إنجلترا، اقترح أن تعود إلى اسكتلندا عليها، وأخبرها أنها يحتمل أن تموت أثناء الرحلة لكنه كان واثقاً أنها ستموت على أي حال إذا هي لم تترك كالابار .. وافقت ماري على السفر بشرط واحد وهو أن يسمح لها بأخذ الطفلة جاني معها، ورأى الجميع في بيت الإرسالية الكبير - بما فيهم القس أندرسون أن هذه هي أدعى فكرة للسخرية استمعوا إليها - فماذا سيحدث للطفلة لو أن ماري ماتت في طريق العودة؟ من الذي سيعتني بالطفلة؟ لكن ماري استمعت لكل اعتراضاتهم إلا أنها لم تكن لتتنازل عن رأيها. فإذا كان عليها أن تعود إلى اسكتلندا فليكن ذلك بصحبة الطفلة، فإنها كانت تخشى أن تطاردها أسرتها وتقتلها.

وأخيراً استسلم القس أندرسون لعناد ماري وبدأت ماري والطفلة رحلة العودة إلى اسكتلندا. وإذا شقت الباخرة طريقها شمالاً لم تمت ماري بل بدلاً من ذلك بدأت تسترد صحتها

وقوتها. ولم تعرف ماري سبباً لاسترداد صحتها، فربما كان ذلك بسبب شعورها باحتياج جاني لها.

ومن اللحظة التي وطأت فيها أقدام ماري خارج الباخرة، كانت جاني هي مركز الاهتمام. فمعظم الناس في الجزر البريطانية لم يروا قط طفلاً أسود، وكانت جاني تبدو ذكية بصفة خاصة بشعرها الأسود المجعد وابتسامتها الحاضرة باستمرار. لم تكن ماري تستطيع أن تسير في الشارع في داندي دون أن يقف الناس ليحلقوا في جاني ويسألون أسئلة عنها .. وقد كان ذلك سبباً في تسلية ماري التي فكرت في العكس الذي كان يحدث كلما زارت هي القرى الأفريقية النائية حيث كانت هي الشيء الغريب الذي يأتي الجميع لينظروه.

أحبت أسرة ماري الطفلة جاني وكانت السيدة سليسور مأخوذة بصفة خاصة بحفيدتها الجديدة واعتنت بها وبـ ماري. وقد تم تعميد جاني في كنيسة وشارت التذكارية.

وأخيراً استردت ماري صحتها وقوتها بالكامل وأصبحت قادرة على البدء في جولات الأحاديث في الكنائس - التي كانت ترهبها - رغم أن الأمر اختلف هذه المرة إذ كانت معها الطفلة جاني مما جعل الأمر مختلفاً تماماً. فبالنسبة للمشاهدين كانت جاني قطعة من أفريقيا يمكنهم لمسها وإساکها في دليل ملموس

على أن المرسلين أنقذوا الحياة وتحدوا العادات البربرية. وحينما ذهبت ماري كانت الأموال تتدفق عليها لأجل الإرسالية. ورغم أن ذلك بدا كما لو كان شيئاً طيباً حقاً إلا إنه حرم ماري من العودة إلى كالابار.

وفي يناير ١٨٨٤ بعد ثمانية أشهر من عودتها ووصولها إلى داندي. شعرت ماري أنها بصحة جيدة تسمح لها بالعودة إلى كالابار. إلا أن مجلس إدارة الإرساليات الأجنبية أصر - على أية حال - على بقائها مدة أطول وعمل المزيد من الجولات. وأشار إلى أن الإرسالية في كالابار تحتاج للمزيد من الأموال والإنعاش. وأن أحاديث ماري كانت تزودها بفيض من الإثنتين، وعليه فقد وافقت ماري على مضض على البقاء وزيارة المزيد من الكنائس مع جاني.

ورغم أنها لم تكن ترغب فعلاً في البقاء لمدة أطول في اسكتلندا، إلا أن ماري سرعان ما فرحت بالبقاء فإن أختها جاني زاد عليها مرض الدرن الرئوي بدرجة كبيرة وقد استطاعت ماري مساعدة والدتها في تمريضها، وقد أخبر الدكتور جاني أنها تحتاج أن تنتقل إلى جو أكثر دفئاً إذ كانت تريد أن تحظى بأي أمل في الشفاء. كانت ماري بائسة حيث أنها لن تستطيع أن تترك أختها وهي في هذه الحالة من المرض، وتوصلت إلى

خطة. فطلبت من مجلس إدارة الإرسالية السماح لها باصطحاب أختها معها لتقيم في كالابار. لكن مجلس إدارة الإرسالية رفض، وما كان للخطة - على أي حال - أن تتم لأن السيدة سليسور إنقطعت عدوى الدرن الرئوي من جاني وأصبح عضو الأسرة الوحيد الذي ترك سليماً هو سوزان أخت ماري.

علمت ماري أنها لن تستطيع العودة إلى أفريقيا وتترك أسرتها في الحالة التي هي عليها. وتوصلت إلى خطة فقامت باستئجار منزل في ديفون في جنوب إنجلترا حيث الجو أكثر دفئاً هناك. ونقلت ماري أمها وأختها المريضتين إلى هناك بينما استمرت سوزان بالبقاء في داندي لعدة أسابيع لكي تربط الأطراف المنفلتة معاً. وهنا حدث ما لا يصدق، فقد تسلمت ماري خبر وفاة سوزان. كانت سوزان تقيم في داندي مع إحدى صديقاتها، التي وجدت ميتة في الفراش ذات صباح. وتحطم قلب ماري وجاني والسيدة سليسور فمن الذي سوف يعتني بالإثنتين المريضتين الآن؟

أسرعت ماري عائدة إلى داندي لتدفن أختها حيث اتخذت قراراً مؤلماً، بأن تبقى في إنجلترا مع أسرتها ويمكن لعملها المرسل في كالابار أن ينتظرها حتى إما أن تموت أمها وأختها أو يتم شفائهما. وكان اختياراً صعباً، لكن ماري لم تستطع أن

ترى خياراً آخر، وشكرت الله على أن لديها الطفلة جاني معها كتذكار عن أفريقيا.

وعندما عادت ماري إلى ديفون أخبرت أمها عن قرارها، ولم تكن السيدة سليسور سعيدة قط به فقد كانت تستطيع أن ترى أن قلب ماري كان في كالابار. ولم تكن تريد أن يتوقف عملها لمجرد أن أمها كانت مريضة. جادلت مع ماري كثيراً حول هذا القرار حتى طلبت ماري في سبتمبر ١٨٨٥ من صديقة مسيحية في داندي أن تتولى رعاية أمها وأختها. كما وأنها عرضت أن تدفع للصديقة من أجرها الذي سوف تأخذه بمجرد أن تبدأ في الإبحار إلى أفريقيا فوافقت الصديقة. وبدأت ماري تضع خططاً للعودة إلى كالابار مع الطفلة جاني وكانت مقتنعة أنها ستكون المرة الأخيرة التي سترى فيها أمها وأختها. وكان الفراق حزيناً إلا أن ماري علمت أن أمها وهي إسكتلندية عنيدة ما كانت لتدع الأمور تسير بطريقة أخرى.

في فترة بعد الظهر - وعلى ظهر الباخرة - عندما كانت الطفلة جاني موضوعة بسلام في سريرها لتحصل على غفوة، كانت ماري تجلس على ظهر السفينة وهي تراقب البحر وهو ينكسر أمام مقدمة السفينة، وتفكر في كالابار التي كانت بالأكثر وطنها كما كانت داندي وديفون وربما أكثر..

كانت ماري تمنى نفسها بالتكلم بلغة الإفيك مرة أخرى وبرؤية أصدقائها في أولد تاون لكنها لن تعيش هذه المرة في أولد تاون فقد أخطرتها لجنة الإرسالية بذلك قبل أن تبدأ الإبحار. فسوف تركز عملها هذه المرة في جريك تاون.

كانت هناك مرسلتان وهما الأنسة جونستون والأنسة إيجارلي شقيقة ساميول إيجارلي تعيشان في جريك تاون وهما الآن مريضتان بحيث لا تستطيعان الاستمرار في العمل هناك، وقد طلب من ماري أن تأخذ مكانهما وكان بإمكانها أن ترفض، لكنها لم ترد أن تتسبب في إحداث الكثير من سوء التفاهم. وعليه فقد وافقت على الانتقال إلى هناك، إلى جانب أن ماري كانت تستطيع أن ترى بعض الأمور الطيبة في بقائها في جريك تاون. فقد كانت هي قرية صديقها وحاميتها الملك إيو ولديها هناك الكثير من الأصدقاء الآخرين كذلك. هوج جولدي وزوجته اللذان كانا يقيمان هناك. وقد أصبحت ماري تحترمهما إحتراماً عظيماً عبر السنين وتتطلع إلى صحبتهما. والأهم من كل ذلك أن جاني ستكون في مكان أبعد بالنسبة لأسرتها التي لا بد أن تكون مازالت تبحث عنها لتقتلها.

لكن كانت هناك أيضاً محاذير لبقائها في جريك تاون فقد كان على ماري أن تعيش على نمط أوروبي، وتقوم بتسليّة

الضيوف من الأوربيين، وتأكل الطعام الإنجليزي وتلبس كإحدى السيدات من العصر الفيكتوري.

كانت ماري وهي في سن السابعة والثلاثين لا تزال تحمل حلمها بالحياة بعيداً في الغابة الأفريقية بعيداً عن التأثيرات الأوروبية كلها وخدمة الأفارقة الذين لم يسمعوا قط رسالة الإنجيل وقوته القادرة على تحريرهم من عاداتهم الظالمة. لكن حلم ماري لم توافق عليه إدارة الإرسالية أو تؤيده. ورغم معارضتها فقد كانت ماري تصلي أن يستخدم الله وقتها في جريك تاون كأعداد لتنفيذ وتحقيق حلمها في وقت ما في المستقبل. وما كان يمكنها أن تتصور كيف استجيب صلواتها بطريقة مأساوية أو إلى أين سيقودها في السنوات القادمة.

الفصل الحادي عشر

جريك تاون

صاح القس أندرسون قائلاً: "مرحباً بك في وطنك يا ماري سليسور. قالها وهو واقف على الشاطئ إذ كانت الباخرة تتاور للدخول إلى المرسى على مجر نهر كالابار. ولوحت ماري له بينما كانت جاني تطل باستغراب من خلف ثياب ماري ولم تكن تتذكر أرض موطنها وتنتظر إليها من خلال عيون طفلة لها من العمر ثلاث سنوات لم تعرف سوى اسكتلندا ولا بد أن كل شيء بدا غريباً جداً بالنسبة لها. وكانت ماري متشوقة لأن تستعيد جاني جذورها وتتعلم كيف تتكلم بلغة الإفيك.

إنحنت ماري إلى أسفل وطوقت جاني بذراعيها وهي تقول: "كل شيء على ما يرام يا جاني - فنحن في الوطن - وطننا في كالابار." وإذ تفرست ماري في المنظر أشارت إلى القارب التجاري الجديد المربوط في المرفأ الجديد في خليج تل الإرسالية وقالت بانفعال: "إنظري يا جاني هناك القارب الجديد الذي اقتصد أطفال مدارس الأحد في اسكتلندا ليشتروه. ألا يبدو عظيماً؟ وعلياً أن نقوم بكتابة خطاب لهم وإخبارهم كيف يبدو رائعاً.. أليس كذلك!" وأومات جاني برأسها.

كان اليوم هو الرابع من ديسمبر عام ١٨٨٥ وقد تم الترحيب بعودة ماري إلى أسرة الإرسالية بحماس عظيم فهي في النهاية كانت إحدى المرسلات القليلات التي بقيت على قيد الحياة في حقل الإرسالية في كالابار لمدة فصلين كاملين. كانت (جيسي هوج) امرأة صغيرة كانت ماري قد قابلتها في اسكتلندا واحدة من أوائل الأشخاص الذين قابلوها وقت تبنت فكرة الإرسالية وتحدياتها بعد أن سمعت ماري وهي تتحدث، مما جعل ماري تشعر أن وقتها في اسكتلندا لم يذهب هباءاً. والحقيقة أنه نتيجة لجهود ماري في اسكتلندا أصبحت للإرسالية الآن أموال أكثر مما كان لها من قبل. وكذلك القارب التجاري الجديد ليبحر في أنهار كالابار.

لم تكن جيسي هوج هي الوافدة الجديدة الوحيدة إلى إرسالية كالابار فإنه خلال غياب ماري طوال ثلاث وثلاثين شهراً جاء خمسة مرسلين جدد. ثلاثة من اسكتلندا وإثنان من جاميكا وبهذا وصل العدد الإجمالي للمرسلين المشيخين في كالابار سبعة خدام مرتسمين مع زوجاتهم وأربعة رجال عزاب وأربع نساء عازبات.

وبعد قضاء عطلة نهاية الأسبوع في ديوك تاون إتخذت ماري وجاني طريقهما إلى جريك تاون لتعاودا الالتقاء مع الملك

إيو وجميع أصدقاء ماري في جريك تاون. وكان السؤال الأول الذي سألته الملك لـ ماري هو إذا ما كانت والدتها بصحة جيدة. وكان لدى ماري خطاب من أمها إلى الملك إيو فقامت بتسليمه له. كان الملك إيو ووالدة ماري السيدة سليسور قد تراسلا بانتظام منذ الرحلة الأولى التي قامت بها ماري إلى جريك تاون. وقالت ماري أنها تأمل أن تكون أمها في حالة جيدة ولكن في قرارة نفسها كان هناك شعور بأن الأمور تسير سيئاً جداً. والحق أن الوضع كان كذلك، فلقد ماتت السيدة سليسور في ليلة رأس السنة بعد ثلاثة أسابيع فقط من وصول ماري عائدة إلى كالابار، وبعدها بثلاثة أشهر تلقت ماري خطاباً يخطر بها بأن أختها جاني قد ماتت هي الأخرى. وبعد استلام هذا الخطاب قامت ماري بتقديم واجباتها المحددة في دراسة الكتاب المقدس بطريقة طبيعية، ثم صرفت بقية الليل في البكاء في فراشها. فخلال سنة واحدة فقدت ماري أمها وأختها الباقيين.

شعرت ماري بالمرارة والفراغ طوال أيام كثيرة وصارت تفكر في كل قراراتها التي اتخذتها. هل أخطأت بعودتها إلى كالابار؟ وهل كان يجب عليها أن تصر على اصطحاب أختها معها عند عودتها؟ ولماذا لم تدرك كم كانت أمها قريبة من الموت وبقيت معها في الوطن لمدة شهرين آخرين؟

كان لدى ماري الكثير من الأسئلة التي ليس لها إجابات. وأخيراً قبلت ماري حقيقة أن أسرتها قد انقرضت، فلبست خاتم زواج أمها كتذكارة للناس الذين كانوا يعنون الكثير بالنسبة لها. كان الخاتم عبارة عن حلقة ذهبية بالية من كثرة الاستخدام لمدة خمسون عاماً من العمل الشاق.

ألقت ماري سليسور بنفسها مرة أخرى في دوامة العمل المرسلي، وكان هناك الكثير لتضع نفسها فيه. فإن الأنسة جونستون والأنسة جارلي كانتا قد بدأتا في إنشاء جدول نشاط من الزيارات للنساء في ساحاتهن، لعلاج المرضى والتدريس في المدارس ومدارس الأحد. ولما كانت الإثنتان قد أصبحتا مريضتين وعادتا إلى اسكتلندا فقد أخذت ماري مكانهما في العمل، وليس ذلك فقط، بل لقد استمرت في عملها المعتاد لجمع الأطفال. ففي أثناء تواجدها في اسكتلندا تم إيجاد عدد من البيوت للأطفال الذين تركتهم خلفها، ولما كانت الآن في جريك تاون فقد أرسل إليها أطفال آخرون حتى صار لديها خمسة أطفال بالإضافة إلى جاني يعيشون معها بصفة مستمرة. بالإضافة إلى عدد آخر كانوا يترددون على البيت. كانت كبرى الفتيات في الثالثة عشر من عمرها وكانت قد أرسلت إلى ماري للتدريب على إدارة بيت أوروبي على أمل أن تستطيع يوماً ما أن تحصل

على وظيفة وصيفة. كانت إينيانج بنتاً كبيرة الجسم أكبر كثيراً من ماري ولكنها لطيفة ومحبوبة لكن مشكلتها الوحيدة كانت أنها لم تكن تحب أن ترتدي أية ملابس وبالطبع كان هذا السلوك أثار بعض من المرسلات الأخريات اللواتي كن يحضرن للزيارة. وسرعان ما أصبحت إينيانج مسئولة عن العمل اليومي في المطبخ وساعدت في العناية بالأطفال الآخرين.

وعاش أوكين أيضاً مع ماري وكان صبيّاً يبلغ من العمر ثماني سنوات. وهو ابن جارية قرر صاحبها أنه يجب أن يربي ليعرف الإله المسيحي وقد حير هذا القرار ماري لأن المالك لم يكن مهتماً أساساً بالمسيحية ومع ذلك فقد كانت سعيدة لتحتوي أي شخص يعطى لها.

كان إكيم ذو العشر سنوات هو أكبر الأولاد الذين يعيشون في بيت ماري سناً وهو أحد أبناء الملك إيو وكان سريع التعلم كما كان لطيفاً وصبوراً وقد اعتبرت ماري تربيته شرفاً لها وكانت ترجو أنه سيصبح يوماً ما ذا دور حيوي ومؤثر في القبيلة.

وهناك ولد آخر أرسل إلى ماري ليعيش معها، أرسلته أخت الملك إيو. فإن أحداً قد رأى والدي الطفل وهما يسرقان كلباً من أحد الجيران ويطبخانه سراً ويأكلانه. فقام بإخبار صاحب الكلب

الذي استشاط غضباً لأنه كان يأمل أن يأكل هو الكلب في وليمة في الأسبوع التالي فمضى إلى بيت الوالدين وألقى عليهما تعويذة تجلب اللعنة. وخلال أيام مرضت المرأة وماتت وأصبح والد الطفل مرتبكاً جداً لدرجة أنه لم يعتن بطفله الذي كان في السنة الأولى من عمره. ولأن الأسرة كانت تحت اللعنة الشريرة، فلم يقدّم أحد بإطعام الطفل أو حتى العناية به. وأمرت أخت الملك إيو أن يؤخذ الطفل إلى ماري واستغرق استعادة الطفل لقوته وصحته عدة أسابيع. وعندما أرسلت ماري إلى أخت الملك تسألها ما إذا كان أحد عبيدها مستعد لتربية الطفل، كان حنان أخت الملك قد نفذ - كما يبدو - فأرسلت لها رسالة تقول "دعي الطفل يموت" لكن ماري لم تفعل بل احتفظت به وصار هو أيضاً جزءاً من أسرتها وإلى جانب هؤلاء الأربعة كانت هناك طفلة ذات ستة أعوام مع جاني قد اجتازت الكثير من الأضرار. ففي عصر أحد الأيام - ليس بعد استقرار ماري في جريك تاون بكثير - قدم أحد العدائين تقريراً لها أن والدته جاني قد ماتت أثناء وجودها في اسكتلندا لكنها لم تكن تعلم أي شيء عن مكان تواجد والدها.. وفعلاً بعد وقت قصير مشى رجل طويل له أيدي ضخمة وتكشيرة على وجهه إلى ماري وأخطرها أنه كان والد جاني. دق قلب ماري بعنف في صدرها ولم تعد

متأكدة مما تفعله. هل أتى الرجل ليأخذ جاني معه، والأسوأ هل كان ينوي قتلها فوراً؟ ربما يكون قد صادفه سوء الحظ مؤخراً وألقى اللوم على جاني التوأم الحي بشأنه .. وصلت ماري صلاة سريعة ثم شعرت أنها يجب أن تدع الرجل يرى إبنته.

شرح الرجل موقفه قائلاً: "كل ما أريده هو أن أراها من على بعد." أجابت ماري قائلة: "إنها لن تؤذيك" ثم استدارت إلى اينيانج وقالت لها: "إذهبي واحضري جاني إليّ وقولي لها أن هناك زائر خاص يريدّها."

ومرت بضع دقائق مشحونة بالتوتر وهم ينتظرون ظهور جاني التي أسرعت تجري إلى ماري مباشرة واختبأت خلف جونتتها. قالت ماري بلطف: "يا جاني هذا والدك وأريدك أن تذهبي إليه وتضميه إلى حضنك كبيرة." تشاركت جاني ووالدها في نظرة رعب، لكن جاني فعلت ما طلب منها وأمسكها والدها في البداية أمامه على ذراعه ثم ضمها بشدة والدموع تجري من عينيه على خديه .. ودعته ماري ليبقى للغذاء المكون من الأرز والمرق ولما حان وقت رحيله وعد الوالد أن يعود خلال يومين. ولما عاد أحضر معه طعاماً لكل من في البيت، ومنذ ذلك الوقت وحتى وفاته - بعد عام كامل - كان يسير مسافات طويلة لكي يحضر طعاماً لإبنته وللأم البيضاء.

وكثيراً ما كان الملك يحتاج إلى خدمات ماري التي كانت تفهم القانون البريطاني أفضل ما يفهمه هو، خاصة، وأن الدور البريطاني في كالابار كان يتغير. فحتى ذلك الوقت كان هناك اتفاق يعرف باسم (اتفاق مؤتمر برلين) الذي يعطي مختلف الأمم الأوروبية دوائر نفوذ في أفريقيا. وكانت منطقة كالابار ضمن دائرة النفوذ البريطاني. وكان هذا يعني أنه كان من المفروض أن يكون للبريطانيين سيطرة على الشعب والتجارة في المنطقة.

على أنه في عام ١٨٨٧ استولت ألمانيا على الكاميرون بالقوة وهي التي كانت مهتمة بها منذ مدة طويلة وطردت منها المرسلين البريطانيين الذين كانوا يعملون هناك وأغلقت محطة إرسالياتهم ومدارسهم وقد أدى هذا التحرك من جانب ألمانيا إلى انقلاب كفة الميزان الهش بين دوائر النفوذ. وبدأت بعض الحكومات الأجنبية الأخرى تفرد عضلاتها على مناطق في أفريقيا.

وبالطبع فإن هذا الموقف أقلق المرسلين وكل الناس الآخرين في كالابار وتساءلوا فيما إذا كان الألمان سيسيطرون من الكاميرون المجاورة إلى كالابار. وكان الملك أيو بصفة خاصة قلقاً لأنه كان على علاقة رائعة مع البريطانيين وخاصة بمساعدة

ماري ولم يكن يرغب مطلقاً في البدء مرة أخرى مع قوة أجنبية جديدة.

وشعر القنصل البريطاني أن أفضل طريقة لتأمين كالابار كانت بأن يضغط في الداخل بالفصائل الحربية البريطانية وقوارب المدفعية ويفتح المزيد من طرق التجارة بقوة البريطانيين. وتوسل المرسلون بما فيهم ماري إلى القنصل البريطاني أن يدعمهم يكونون أول من يجري اتصالاً بالقبائل الداخلية، فقد كانوا مقتنعين أن كثيرين من الأهالي سوف يقتلون في صراع لا حدود له لو أن الفصائل الحربية أرسلت للداخل أولاً.

كانت ماري سليسور مستعدة وراغبة في الدخول إلى داخلية البلاد وقد وطدت عزمها على الذهاب إلى أوكويونج الواقعة في مثلث من الأرض بين كروس ريفر ونهر كالابار وعندما أخبرت الملك أيو بهذا أصيب بالهلع فقد كانت أوكويونج أكثر المناطق همجية في كل كالابار. وسأل ماري قائلاً: "هل أنت مجنونة؟ يجب أن تصغي إليّ. إن أهل أوكويونج شعب غير طيب وهم لا يتقنون في أي أحد بل لا يتقنون حتى في بعضهم البعض وهم دائماً على حذر لخوفهم من أن يهجم عليهم جيرانهم."

أومات ماري برأسها وقالت: "أنا أعلم ذلك فهم يعيشون في ظلام مطبق." واستمر الملك أبو يقول: "إنهم يمارسون كل الطرق القديمة - قتل التوائم، المحاكمة بطريقة السم وقتل الزوجات والعبيد - لقد سمعت منذ أسبوع واحد فقط أن أحد رؤسائهم الصغار قد مات. وقالوا أنه كان لديه أربعين شخصاً من العبيد والأطفال والزوجات، وقد دفنوا جميعاً معه." ألح الملك أبو على ماري قائلاً: "إنهم لن يتوقفوا لحظة واحدة ليفكوا قبل أن يقتلوا لحظة واحدة ليفكروا قبل أن يقتلوا إذا أنت تكلمت معهم في أمر لا يحبون سماعه."

أنصت ماري بعناية لما كان الملك أبو يقول، فقد كانت تعلم أن القبائل الساحلية وقبائل أوكويونج كانت في حرب لعدة أجيال وكانت آخر جولة من القتال قد انتهت بفوز القبائل الساحلية، وعرض الأوكويونج أن يظهروا أنهم على استعداد للتسليم عن طريق دفن رجل وهو حي. ولما كان القادة المسيحيون في جريك تاون لا يوافقون على ذلك فقد ظلت القبيلتان في حالة حرب غير رسمية .. ومع ذلك فإن شيئاً مما قاله الملك أبو لم يكن ليثني ماري عزمها. فقد أرادت أن تمضي قدماً مثل بطلها ديفيد ليفنجستون.

وبدا كما لو أن ماري سليسور لن يسمح لها قط بمواصلة

حلمها الخاص بالعمل المرسل في الداخل، لكن في عام ١٨٨١ كان مجلس إدارة الإرساليات الأجنبية في اسكتلندا قد أصدر قراراً بالسماح للمرسلات غير المتزوجات بالعمل مستقلات عن الرجل وهذه الخطة الجديدة سميت (خطة زينانا) وتم تطبيقها فوراً في الهند والصين وجزر الهند الغربية، وقد اعتبر غرب أفريقيا - على أية حال - حالة خاصة بل إنه حتى النساء اللاتي كن في لجنة (زينانا). اعتقدن أنه سيكون الموت المؤكد نهاية كل المرسلات اللواتي يرسلن إلى هناك .. وعلى أي حال فإنه بعد خمس سنوات، ونتيجة للإلحاح المستمر من ماري عكست اللجنة قرارها بخصوص غرب أفريقيا. وفي عام ١٨٨٦ قررت اللجنة أن توصي بأنه يجب السماح لمرسلة غير متزوجة أن تقدم طلباً لشغل مناصب في داخلية البلاد حيث يعملن بمفردهن، وبالطبع كانت ماري هي أول من تقدمت بالطلب.

ووعدت لجنة زينانا بدراسة طلب ماري. وفي أوائل عام ١٨٨٨ تسلمت ماري خطاباً يفيد أنها قد أعطيت إذنًا بالمغامرة بالدخول إلى مقاطعة أوكويونج. وبالطبع فإن الزمن وحده هو الذي سيبين ما إذا كان هذا التصريح سيتحول إلى حلم محقق أم إلى كابوس لا ينتهي بالنسبة لـ ماري.

الفصل الثاني عشر

إلى إكينجي

كان ترك جريك تاون هو أكثر أيام الوداع التي إختبرتها
ماري حزناً. كان المزاج العام يشبه الجنازة بالنسبة لها. وقد
استغرق ذلك ستة أشهر، ولكن الآن في أوائل أغسطس ١٨٨٨
كانت ماري تأخذ أخيراً الخطوة الكبرى وهي التحرك إلى
مقاطعة أوكويونج بعد أن كانت قد قامت بثلاثة رحلات
استكشافية للمنطقة قام أحد الرؤساء هناك بإعطائها وعداً بقطعة
من الأرض لتبني عليها مدرسة وكنيسة، والآن فإن أصدقائها
في جريك تاون سواء من المرسلين أو الأهالي في جريك تاون
أصبحوا متأكدين إنها على وشك التجديف للوصول إلى موتها
أفضل تجديف لتذهب مع الملك إيو.

حول أسبوع كامل من المطر المستمر تحولت المنطقة الريفية
إلى بحر من الوحل، وأثناء سير ماري في طريقها إلى القارب
إنزلقت في الوحل على حافة النهر واندفع أحد المتجديدين حديثاً
إلى نجدتها قائلاً: "سأصلي من أجلك كل يوم لكني لا أعلم إذا
كان ذلك سيأتي بفائدة أم لا. إنك ذاهبة لموتك." قالها وهو يساعد
ماري للوقوف على رجليها وإذ نظرت ماري من وجه إلى آخر

علمت أنهم جميعاً يشعرون بنفس طريقة شعور المتجدد الحديث. وفجأة صاح القس جولدي بصوت أعلى من صوت المطر المتدفق قائلاً: "ليس مناسباً أن تذهب الآنسة سليسور بمفردها. من يمكن أن يتطوع لمصاحبتها إلى بيتها الجديد؟" تقدم السيد بيشوب طباع الإرسالية للأمام وصاح: "إنني أرغب في مصاحبتها." ولكي يثبت ذلك وضع قدمه في القارب وهو على حالته دون أي قطعة متاع وقال لأحد المجدفين: "هات، سلمني الأطفال فقد أذن وقت الرحيل."

وما كانت ماري تستطيع أن توافق على أكثر من ذلك فإن المزاج المتجهم كان يتفق مع الصباح المتجهم، وكان أكثر مما تستطيع احتماله ورددت قول السيد بيشوب: "نعم، لقد أذن وقت الرحيل." ثم ساعدت أوكين وأكيم وجاني في الدخول إلى القارب ثم مررت آخر أطفالها الذين تبنتهم إلى السيد بيشوب وفي ظرف دقائق قليلة كان الأطفال الثلاثة كلهم قد وضعوا في أماكنهم بأمان تحت السقف المصنوع من القش في وسط قارب الملك أيو الكبير. كانت ماري مغطاة بالوحد من رأسها إلى أصابع قدميها وهي ترتعش من البرد.

وقد قام الطبالون بضرباتهم الريفية وانسحب القارب بعيداً عن الشاطئ، لم تكن هناك صيحات وداع من الجمهور فقد كان

إعانة شخص أو نحوهم الذين تجمعوا واقفين بحزن وهم يراقبون (أهمهم البيضاء) وهي تخفض في إحدى منحنيات النهر. واستراحت ماري بأن تكون في طريقها وتحولت إلى السيد بيشوب وقالت: "أشكرك لذهابك معي. هل تحب أن نشرب قليلاً من الشاي؟" أجاب: "هذا يبدو أنه فكرة رائعة."

أشعلت ماري موقداً زيتياً صغيراً ووضعت فوقه براد الشاي المليء بالماء. وإذا انتظرت حتى يغلي الماء قامت بتقطيع بعض الشرائح من الخبز المصنوع بالمنزل وأثناء شربهما الشاي وأكلهما الخبز بدأ السيد بيشوب يتساءل عن الوظيفة التي تطوع لها: "إلى أين نحن ذاهبون بالضبط يا آنسة سليسور؟" أجابت ماري: "إلى أوكويونج. وهي قرية على بعد أربعة أميال من النهر لذا فعلينا أن نترك القائم ونسير للداخل على أقدامنا." وأما السيد بيشوب برأسه وهو لا يزال في حالة ذهول لأنه تطوع لهذه المهمة وجلس الإثنان في صمت لبعض الوقت يصغيان إلى أصوات الغابة وضربات المجاديف في ماء النهر. كانت ريح مضادة تهب واستغرق الوصول إلى المنطقة المفتوحة من النهر حيث كان عليهم ترك القارب - تجديف لمدة يوم كامل - وكان الظلام قد بدأ يحل عندما جذف المجدفون القارب إلى ضفة النهر. قالت ماري: "لم يعد هناك ضوء كاف." وهي تتعجب من

الوقت الطويل الذي أضافته الريح المضادة إلى الرحلة.

وقف مستر بيشوب ومد ساقيه الطويلتين وقال: "حسناً يستحسن ألا نضيع أي وقت إذاً. ماذا تقترحين؟" قالت ماري: "يجب أن أجفف الأطفال وأعطيتهم شيئاً ليأكلوا بأسرع ما يمكن." إن غداً يوم الأحد وسيكون علينا أن نحول كل شيء إلى أكينجي قبل منتصف الليل فنحن لا نستطيع أن ندع أحداً يعمل في يوم الراحة. أليس كذلك؟ سأسير للأمام مع الأطفال وتأتي أنت بعدنا مع إثنين من المجدفين وتحضروا معكم بعض صناديق الطعام والملابس الجافة وباقي المجدفين يمكنهم أن يتبعوا مع باقي الصناديق."

وافق السيد بيشوب وقال: "تبدو هذه فكرة صائبة. وهل يحمل الطريق علامات واضحة؟ .. أجابت ماري معترضة: "لا في الحقيقة لكن بعض المجدفين يعرفون الطريق وأنت لديك مصباح ولا بد أن تتمكن من العثور على طريقك." جمعت ماري الأطفال حولها وأعطت الولدين الأكبر سناً صندوقاً صغيراً ليحملاه بينما كانت جاني تحمل براد الشاي وإناءين مربوطين معاً في قطعة من الحبال حول رقبتها أما البنيتين الأخريتين فكانتا صغيرتين لدرجة أنه كان على ماري أن تحملهما واحدة تحت ذراعها والأخرى فوق كتفها ومضت تؤرجح مصباحاً في يدها

الأخرى الحرة. وصاحت: "سنراكم في إكينجي" وهي تبدو أشجع بكثير مما كانت تشعر به فعلاً وحقاً. قال السيد بيشوب وهو يساعد على إنزال إطار أحد الأبواب وإطاري نافذتين من مقدمة القارب: "ليسر الله معكم."

كانت ماري قد اجتازت الطريق على قدميها من قبل عندما جاءت لتتقل التصريح بالبقاء في إكينجي ولكنها لم تسافر فيه قط أثناء الليل أو في أوقات المطر ومعها طفلتان متشبثتان بها وثلاثة آخرون يكون ويشتون. ولم تجسر أن تدع أفكارها تتزلق إلى الأخطار التي أمامها وكانت تعلم أنها إذا سمحت لمثل هذه الأفكار أن تزحف إلى عقلها فمن المحتمل أن تستدير وتعود سائرة إلى القارب. بحيث تسير أمور كثيرة سيراً غير صحيح.. يمكن أن تكون القبيلة على طريق الحرب وفي مثل هذه الحالة تكون هي والأطفال ومجدفي قارب جريك تاون هم الأعداء أو يحتمل أن يكون الرئيس مخموراً أو قد نسي أنه وعدها بقطعة أرض لمدرسة وكنيسة ومنزل. كما كان هناك أيضاً النمرور المرقطة والثعابين وحيوانات مفترسة أخرى يمكن أن تهاجمهم في أية لحظة.

وأخيراً، بعد ثلاث ساعات من التوتر والانزلاق في الممر الموحد وصلت ماري والأطفال إلى إكينجي ووقفت في الساحة

وأخذت تنتظر حولها وهي تشير إلى الأطفال لكي يهدأوا - لقد كان هناك خطأ ما - فلم تكن هناك نيران ولا أصوات صادرة من الأكواخ وبدأت القرية كما لو كانت مهجورة. هل كانت هناك غارة على القرية؟ لم تكن ماري متأكدة .. وفجأة سمعت في الظلام خليطاً من الأصوات ثم خطا عبدان شبه نائمان خارج الكوخ. قالت ماري: "أهلاً .. أين الجميع؟ هل هناك أي مشكلة؟" وللحظة نسيت أن العبدان يمكن ألا يفهما لغة الإفيك لأنهما يتكلمان لغة البانتو التي لا تعرفها هي فاستخدمت إشارات اليدين في التفاهم معهما ومن إشارات العبيدين فهمت ماري أن أم الرئيس قد ماتت في وقت مبكر من اليوم وكل قرية أكينجي قد ذهبت إلى الجنازة تاركين فقط عدداً قليلاً من العبيد ليحرسوا الأكواخ والحدائق.

كان القس جولدي قد أخبر ماري عن بعض عادات الجنائز في أوكويونج التي يشترك فيها الجميع ومن أصغر طفل إلى أكبر الأشخاص سناً يشربون الخمر حتى يسكروا ويقوموا بممارسات سحرية. وقد يستمروا في ذلك لعدة أيام.

قاد أحد العبيد ماري إلى ما بدا مثل كوخ مهجور لم يكن فيه نوافذ بل مجرد فتحة مكان الباب فخطت ماري إلى داخله ولاحظت في الحال مياه الأمطار وهي تجري داخل الكوخ

وعلى الجدران وعبر الأرضية كما كان السقف المصنوع من القش ينقط أيضاً. ووعدت ماري أنها ستصنع سقفاً جديداً أول شيء في يوم الإثنين لأنها يجب الآن أن تركز على تجفيف الأطفال وتغذيتهم حتى يمكنهم أن يناموا .. أحضر عبد آخر بعض العصي الجافة لإشعال نار ووضعت ماري براد الشاي الذي كانت تحمله جاني تحت أكبر القطرات النازلة فامتلاً ببعض الماء في وقت قصير ووضعت فوق النار المشتعلة. ولكنها لم تستطع أن تدفئ الأطفال رغم محاولاتها الكثيرة. جلس الأطفال وهم عرايا يرتجفون أمام النار الضعيفة وكانت ماري قلقة بشأنهم. فلو أنهم لم يحصلوا على بعض الدفء والثياب الجافة بسرعة قد يتعرضون للمرض وكثيراً ما كان الموت يتبع المرض في الغابة الأفريقية.

حشرت ماري ملابس الأطفال المبللة بين سعف النخيل الذي يغطي سقف الكوخ في محاولة يائسة لوقف التنقيط، ثم جلست وحاولت أن ترنم للأطفال ليناموا وقالت لهم: "لا تخافوا يا أطفال الصغار فإن الله يبرعاًكم". وكانت ترنم بصوت منخفض لنفسها أكثر مما ترنم للأطفال .. وأخيراً مالت رؤوس الأطفال عندما راحوا في النوم. وعندما نام الأطفال بدأت ماري تفكر في نفسها لأول مرة. كانت مبللة حتى الجلد وقدمها متورمتين داخل

حذائها. فنزعت عنها الحذاء ووضعتَه إلى جانب النار وهي تفكر إنها لن تستطيع إدخال قدميها في الحذاء قبل مرور ستة أسابيع.

وبعد نصف ساعة خرج السيد بيشوب من الغابة وهو مغطى بالوخل ووجهه ينزف دماء حيث كان قد سار في منطقة بها أشجار متدلية وقال: "لم أستطع حمل المجدفين على الترحزح، وأحضرت أنا ما استطعت حمله. عندي بعض الملابس الجافة للأطفال." وسلم ماري صندوقاً للملابس واستأنف قائلاً: "قال المجدفين أنهم مرهقون جداً بحيث لا يستطيعون السير في الغابة في الظلام فالمنطقة هي منطقة شعب الأوكويونج كما تعلمين، وهم يرتعبون منهم حتى في النهار."

تنهدت ماري بعمق، لقد كانت مرهقة للغاية لكنها كانت في حاجة إلى المؤن والطعام بصفة خاصة ولن تسمح للرجال بالعمل يوم الأحد لذا فقد أخذت صندوق الملابس إلى جوار النار وبدأت تقلب فيه بحثاً عن بعض الملابس الجافة للأطفال وقامت بعد ذلك بإيقاظهم بسرعة واحداً واحداً وإلباسهم قبل أن تقودهم برفق إلى النوم مرة أخرى. وبعد أن تم إلباس جميع الأطفال الخمسة ملابسهم، جلست ماري بجوار النار وبدأت في لبس حذائها. ورغم كل المحاولات التي قامت بها، لم تتمكن من

إدخال قدميها المتورمتين داخل الحذاء. فاستدارت إلى السيد بيشوب بشجاعة وقالت: "لقد بدأ الماء يغلي لعمل الشاي، والشاي في أحد الصناديق هناك في القارب. سأذهب وأتي به بنفسِي."

توسل إليها السيد بيشوب قائلاً: "يجب ألا تذهبين فإن ذلك خطر جداً. إلى جانب أن قدميك سوف يتقطعان." ضاعت كلمات السيد بيشوب إذ أخذت ماري المصباح وتوجهت إلى داخل الغابة وهي ترنم بصوت مرتفع أثناء سيرها محاولة ألا تتخيل ما قد حدث وأدى إلى تفرق سرب من الطيور من على إحدى الأشجار. أو ما صوت التكسير فوق أرض الممر. وعندما وصلت أخيراً إلى النهر لم تستغرب إذ وجدت أن القارب قد تم دفعه فوق الماء إلى داخل الماء وإرسائه على بعد عشرة أقدام من البر فقد علمت أن الرجال يمكن أن يكونوا قد فعلوا ذلك ليجعلوا هجوم محاربي الأوكويونج عليهم أكثر صعوبة وليبعدوا النمر من القفز عليهم. كان غطاء من التيل قد سحب فوق أعلى القارب. خمنت ماري أن المجدفين لابد أنهم نائمون نوماً عميقاً تحت هذا الغطاء.

وقفت ماري لحظة وهي غير متأكدة مما ستفعله بعد ذلك، لقد قطعت كل هذه المسافة ورفضت أن تعود فارغة اليدين. فنزلت بقدميها إلى الماء متجاهلة تهديد التماسيح. وانتفخ رداءها

حول وسطها فقد كانت مغورة في الماء حتى إبطيها قبل أن تصل إلى القارب وأخذت تضرب على القارب بقبضة يدها وهي تصيح في الرجال لتوقظهم، ثم وجدت مكاناً لم يكن مغطى، فرفعته وهي تصيح مرة أخرى.

وصرخ واحد من الرجال الفزعين قائلاً: "الأوكويونج!!" وفي الحال كان جميع البحارة مستيقظين وهم يبحثون بأيديهم عن أسلحتهم. حاولت ماري أن تهدئهم قبل أن يقوموا بإيذائها، وبيضع كلمات جيدة الانتقاء أخرجت الرجلين حتى قفزوا على ظهر القارب وسحبوه إلى الشاطئ. ووقتها كان القمر مختبئاً خلف السحب السوداء والجو كله في ظلام دامس. وبطريقة ما قامت المرأة ذات الشعر الناري من داندي بإقناع المجدفين ليسيروا مسافة أربعة أميال خلال منطقة الأعداء في الظلام حاملين الصناديق.

وصلت ماري والمجدفين إلى إكينجي قبيل منتصف الليل بقليل وكان السيد بيشوب جالساً أمام النار منتظراً ماري وذهل حين رآها ومعها كل الرجال وسألها: "كيف استطعت أن تقنعي الرجال؟ فلقد حاولت بكل الطرق التي أستطيع التفكير فيها وقررت في النهاية أنه كان أمراً مستحيلاً." ابتسمت ماري في ضعف، وفتحت إحدى الصناديق الذي كان فيه ملابسها ثم تمت

للجميع ليلة سعيدة ودخلت إلى داخل الكوخ لتكون مع أطفالها وهي مرهقة تماماً من التعثر وشق طريقها خلال الغابة.

استيقظت ماري صباح اليوم التالي على صوت مطر مستمر على السقف المصنوع من القش وكانت متييسة تماماً بحيث لم تستطع الاستدارة - وقدمائها تختلجان بالألم - وبرجلاها وذراعاها كتل من الجروح والتسلخات. ثم تذكرت أن اليوم هو يوم الأحد - لكنه لم يكن مجرد يوم من أيام الأحاد بل كان يوم الأحد الخامس من أغسطس عام ١٨٨٨ - فمذ إثني عشر عاماً في مثل هذا اليوم كانت قد أبحرت من ليفربول لتكون مرسلة في كالابار. كانت قد تركت اسكتلندا وهي تحلم، وقد حاربت لمدة إثني عشر عاماً طويلة وقاسية لكي يتحقق ما كانت تحلم به. وها هي اليوم في يوم انتصارها كانت في مقاطعة إكينجي. وطنها الجديد إلا إنها كانت متعبة جداً ومتألمة جداً بحيث لم تستطع أن تحتفل.

لم تستطع ماري أن تبقى في الفراش مدة طويلة مع ذلك، فقد كان هناك الأطفال ليرتدوا ملابسهم ويطعموا - وخدمة يوم الأحد لتقيمها - كانت خدمة بسيطة حضرها السيد بيشوب والمجدفين الذين كانوا في القارب وعدد قليل من العبيد الذين تركوا في القرية. رنم الرجال ترنيمتين، وتكلمت ماري وهي

جالسة على أحد الصناديق لأن الخوف كان مؤلماً جداً لها. تكلمت إليهم عن محبة الله وكانت تعلم بالطبع أن العبيد لم يستطيعوا أن يفهموا ما قالته لكنها كانت تأمل أن يستمتعوا بالترنيم.

وفي اليوم التالي - يوم الإثنين - أقنعت ماري الرجال المجدفين أن يحضروا بقية أمتعتها من القارب حيث لم تكن تستطيع هي أن تفعل ذلك بنفسها بأقدامها المتورمة والمقطعة. فلقد كانت بالكاد تستطيع أن تمشي على رجليها داخل الكوخ. كانت هناك قطعة واحدة من المتاع لا تزال في القارب ويجب إحضارها وهي عبارة عن أرغن متحرك صغير كان المرسلون في ديوك تاون قد أعطوها إياه وما أن وصل ووضع في كوخها لم يتبق مكان لها لتمشي فيه. ولما نظرت إلى أعلى إلى السقف الذي كان لا يزال يقطر. قررت أنه بمجرد عودة الرئيس أديم قائد إكينجي من الجنازة فلا بد أن تطلب منه البدء في بناء البيت والمدرسة اللتين وعدا بهما.

وكان صباح الثلاثاء قبل أن ينتهي نقل جميع متعلقات ماري خلال الطريق الزلق إلى إكينجي وما أن تم نقل كل شيء بدأ السيد بيشوب ومجدفي الملك أيو رحلة العودة إلى أسفل النهر. وإن كانت ماري تراقب - وهي تشعر بالإرتياح -

المجدفين وهم يختفون داخل الغابة، لكنها شعرت بالوحدة أكثر من أي وقت مضى في حياتها كلها. ورأت بوضوح التحديات التي تنتظرها - المطر الدائم - تهديد المرض - العادات الوحشية والخرافات - وعدم احترام الشعب في منطقة أوكويونج للحياة نفسها. وإذ وقفت ماري هناك طلبت من الله أن يحميها هي وأطفالها على الأقل لمدة تكفي لتُري القبيلة أن هناك طريقة أفضل للحياة.

الفصل الثالث عشر

هجر العادات القديمة

عاد أعضاء قبيلة إكينجي إلى القرية يترنحون في أعداد قليلة كل مرة ولم يظهر على أي شخص منهم أنهم قد سروا بوصول ماري. وعندما تكلمت ماري مع الرئيس إديم عن حاجتها إلى كوخ كبير أعطاها أحد الأكواخ القائمة في ساحته وهو متضرر. وكان الكوخ قذراً واستغرقت ماري في تنظيفه ودهان حوائطه عدة أيام ولم يكن لها سوى مساعد واحد إلى جانب أطفالها وكان اسمه إكيا وكان واحد من الأوكويونج وعمره إثني عشر عاماً، لم تطلب ماري منه أن يساعدها لكنه ظهر ذات يوم وعمل إلى جانب ماري طوال اليوم - ينظف ويطهو - بل أنه ساعد أيضاً في فتح فتحات تناسب الباب والنوافذ التي كانت ماري قد أحضرتها معها من جريك تاون وأثناء عملهم معاً بدأت ماري تلتقط لغة البانتو من إكيا كما بدأت ماري تتساعل عما إذا كان إكيا سيصبح أول من سيتجدد في إكينجي.

وبعد أسبوع، كانت ماري تتحرك في كوخها الجديد، وسمعت أصوات ضجة وغناء آتية من ساحة الاجتماع في

القرية. تركت الأطفال في الكوخ وسارت وهي في فضول لتري ما يجري، إلى حيث كان قد اجتمع الناس. واستطاعت أن ترى إناءاً مملوئاً بسائل يغلي على نار مفتوحة. افترضت أن الشعب لابد أنهم كانوا يحتفلون بوليمة من نوع خاص. ورأت أثناء ذلك شيخاً من شيوخ القرية وهو يخطو للأمام ويتكلم بضع كلمات. تمت ماري لو استطاعت أن تفهمها. هل كان يقدم نوعاً من التشكرات من أجل الطعام؟ لو كان يفعل ذلك لكان صوته يبدو أجشاً بصفة خاصة. ولاحظت أثناء كلامه أن إكيا كان واقفاً في مقدمة الجمهور ومحاطاً برجلين كبيرين.

ثم حدث كل شيء بسرعة كبيرة إذ انحنى الشيخ لأسفل والتقط مغرفة وغرف فيها بعضاً من السائل اللامع الذي استطاعت ماري أن تقول أنه كان زيتاً يغلي. وراقبت ماري في رعب إكيا وهو يُسحب إلى حيث كان الشيخ، وفجأة أدركت ما كان على وشك الحدوث. صاحت وهي تشق طريقها خلال الجمع، لكن كان ذلك متأخراً جداً. فقد سكب الزيت على يد إكيا وذراعيه وسقط إكيا على الأرض المتربة وهو يصرخ من الألم. تحول وجه ماري الأبيض المملوء بالنمش فوراً إلى اللون الأحمر اللامع واحتدم غضبها فاستدارت وصرخت في وجه الشيخ بلغة الإفيك. في الوقت الذي قام فيه الشيخ بالبطون في

وجهها. وعلمت أنه قد فهم كلامها، فأمرت الرجلين أن يحملوا إكيا إلى كوخها. وترجم الشيخ أوامر ماري أثناء قيادتها الطريق إلى كوخها. لم يكن هناك الكثير الذي يمكن أن تفعله لأجل إكيا غير أن تعطيه جرعة من خلاصة الأفيون وتضمد جراحه. وأثناء علاجها له كانت تصلي وهي ترجو من الله ألا يكون قد فقد قدرته على استخدام يديه بسبب العدوى. وتساءلت عما إذا كانت عقوبته كانت بسبب مساعدته لها. وفي قرارة نفسها كان هناك ألم شديد لما حدث.

لكن إحدى النساء كانت قد تأثرت بمحاولتها العظيمة لإنقاذ إكيا. ولم تكن ماري تعلم. كان اسم المرأة (ما إيمي) وهي أخت الرئيس إديم. وفي اليوم التالي لحادثة الزيت المغلي. جاءت (ما إيمي) إلى كوخ ماري وقالت لها: "تعالى معي إلى خلف الكوخ". وهمست بلغة الإفيك مشيرة بيدها في نفس الوقت. أومأت ماري برأسها وتبعت المرأة الكبيرة الحجم وجلستا في القذارة الموجودة خلف الكوخ.

همست (ما إيمي) قائلة: "إنه أمر خطر علينا أن يرانا أحد وحدنا. ولكني أريد أن أخبرك أنني أرحب بك هنا وسأفعل ما أستطيع لمساعدتك، على أنه إذا اكتشف أحد أنني صديقتك فسوف نقتل نحن الإثنين. هل تفهمين؟" وفجأة صار صوتها

عجولاً .. وأجابت ماري: "نعم. هل كان هذا هو سبب حرق إكيا؟ لأنه أصبح صديقي؟"

أومأت (ما إيبي) برأسها وقالت: "لقد قيل أنه كان يمضي وقتاً طويلاً معك ولم يرافقهم في حملات الإغارة مع الشبان الآخرين واتهم بهجر العادات القديمة لشعبنا." إذاً كانت ماري قد خمنت تخميناً صحيحاً ولكن ذلك كان لا يزال يمثل صدمة - أن تسمع أن شخصاً ما قد تعرض للأذى عمداً لمجرد مساعدته لها في تنظيف كوخها .. ونظرت إلى (ما إيبي) التي فكرت أنها لا بد ستعرض نفسها للأخطار أيضاً فسألتها: "لماذا تفعلين أنت هذا؟"

نظرت (ما إيبي) حولها في عصبية وهي تقول: "إن الزوجات الأخريات في الحديقة وسأخبرك" وأخذت نفساً عميقاً قبل أن تمضي قائلة: "قد تعبت من تلك الطرق القديمة. كنت سعيدة مرة بها فقد كنت الزوجة الوحيدة لرئيس مهم وكان لي كثير من الخدم. كان زوجي طبيباً، لقد ضربني أحياناً وعضني." وأشارت إلى ندب جرح عميق في ذراعها ثم هزت كتفها وقالت: "لكنه كان بعض الزوجات الأخريات كذلك. وفي النهاية ما نحن إلا نساء."

ظلت (ما إيبي) صامتة لحظة فحنتها ماري على الاستمرار

قائلة: "وما الذي غير الأمور، ما الذي جعلك مشمئزة من العادات القديمة." إتسعت عينا (ما إيبي) البنيتين الكبيرتين وقالت: "كانت تلك الجنازة - جنازة زوجي - فعندما ماتت صارت كل زوجاته موضع شك بالطبع وتقرر أن واحدة منهن لابد أن تكون قد قتله وأرسل إلى الطبيب الساحر ليكتشف من هي .. فجعل كل الزوجات يقفن في دائرة ثم قطع رأس إحدى الدجاجات وألقاها في وسط الدائرة. لقد كان الأمر مروعاً .. مروعاً."

أنصتت ماري بعناية أثناء حديث (ما إيبي) وقد استمرت في قصتها قائلة: "انتظرنا جميعاً. فالتى تكون الأقرب إلى الدجاجة المقطوعة الرأس لحظة أن تكف عن الجري ستكون هي التي يتهمها الطبيب الساحر بقتل الرئيس .. وكانت الدجاجة قريبة مني عندما توقفت نهائياً لكنها كانت أقرب قليلاً إلى واحدة من الزوجات الحديثات وهنا أعلن الطبيب الساحر أنها القاتلة وتم جرها كي تكسر ذراعها وساقها وتلقى في قبر زوجها المفتوح. أغمى عليّ فتركوني مع الدجاجة الميتة."

أقلت من ماري تنهيدة عميقة وسألت: "وماذا حدث بعد ذلك؟" قالت: "عدت للعيش مع أخي وهو طبيب معي. وأستطيع الآن أن أتجول في القرية بحرية وسأتي مرة أخرى لزيارتك"

حالما أستطيع."

نهضت (ما إيمي) بسرعة وسهولة عجيبة لا تتناسب مع حجمها وقالت: "الآن لابد لي أن أذهب. فقد بقيت معك فترة طويلة جداً. إنتهي لنفسك." قالت هذه الجملة همساً في أذن ماري بعد أن تركتها (ما إيمي) خلف كوخها وظلت جالسة القرفصاء لفترة طويلة من الزمن وقد أراحت ظهرها على جدار الكوخ الطيني الدافئ وشكرت الله أنه أرسل إليها صديقة مثل (ما إيمي) وتساءلت كيف ومتى يمكنها أن تحدث تغييراً للأفضل في القرية إذا كان مجرد كونهما صديقتين يعني المخاطرة بالمستقبل وبحياتها أيضاً.

وأخيراً قاطعت جاني أفكار ماري بأخبار تقول أن إكيا قد استيقظ وهو يطلب طعاماً وكانت هذه علامة طيبة. وأسرعت ماري لتحصل على البطاطا التي ادخرتها له.

وجاءت (ما إيمي) كما قالت كل يوم تقريباً للتحدث مع ماري وبعد أسبوعين صارت بعض نساء القرية معتادات على وجود ماري حتى إنهن بدأن يحمن حولها وحول كوخها ليرين ما كانت تفعله. وكن مفتونات بصفة خاصة بالأرغن المحمول وماكينه خياطة ماري، رغم أنهن قد قاومن محاولات ماري لخياطة بعض الملابس لهن. فمنذ أسبوع مضى، تم قتل سبعة

رجال لأنهم ارتدوا ملابس، ومرة أخرى كان قتلهم بسبب أنهم هجروا العادات القديمة.

ورغم أن الحياة في إكينجي كانت مختلفة جداً بالنسبة لـ ماري. إلا إن بعض الأمور كانت تشبه ما كان في ديوك تاون تماماً مثل التيار الطويل الذي لا ينتهي من الناس الذين يحتاجون الرعاية الطبية. كانت ماري تمرض كل يوم عشرة أو عشرين شخصاً بكل أنواع وطرق العلاج. وقد كان علاج المرضى فعلاً هو الذي قاد بطريقة غير مباشرة أول خلاف مع الرئيس إديم.

بدأ النزاع ذات يوم عندما جاء عداء من قرية تبعد حوالي ثمان ساعات سيراً على الأقدام من إكينجي وقدم إلى ماري أربعة قضبان من النحاس والتي كان يستخدمها المحليون كنوع من النقود وزجاجة من (الجين) مع طلب مستعجل. فإن امرأة كانت تزور قرية الرجل أخبرت الجميع هناك عن (الأم البيضاء) التي تعيش في إكينجي وتستطيع أن تشفي جميع الأمراض. وأخبرتهم أن ماري قد أبرأت حفيدها الذي كان مشرفاً على الموت وأحضر إليها من قرية قريبة .. وكانت هذه معلومات مهمة بالنسبة للقرية، لأن رئيسهم كان مريضاً جداً وربما لن يعيش أكثر من يوم أو يومين .. فقد جاء العداء ليطالب من ماري لتصحبه عائدة إلى القرية لتشفى الرئيس.

لم تكن ماري تعرف ماذا تفعل فإن مريضها الجديد كان رئيساً. ولو أنه مات أو كان ميتاً فعلاً عندما يذهبان إلى القرية. فإن مشاكل خطيرة يمكن أن تنتج عن ذلك. وستكون هناك وفيات كثيرة وفِرَق من السكارى ويمكن أن تُمسك ماري في وسط كل هذا. بل يمكن أن تُلام على موت الرئيس وعلى الجانب الآخر فإنها لم ترفض قط مساعدة شخص طلب مساعدتها. قامت ماري بزيارة الرئيس إديم و(ما إيبي) لتسألها عما يجب عليها عمله.

قال لها الرئيس: "لا يجب أن تذهبي، فإن قوتي لحمايتك تمتد فقط إلى حدود مسيرة ساعة واحدة في أي اتجاه بعيداً عن هذه القرية. سيكون ذهابك على مسئوليتك الخاصة. ولو أن الرئيس مات فسوف يلقون اللوم عليك، إلى جانب أن الموسم حالياً هو موسم أمطار وكل الطرق مغمورة وقد سقطت أشجار ضخمة في الغابة ولن تستطيعي السير فيها قط." أضافت (ما إيبي): "ليس ذلك فقط، فلو أن الرئيس مات فإن قريته كلها ستأتي وترد لنا الجزاء لأننا أرسلناك إليهم ويمكن أن نصبح جميعاً أمواتاً قبل أن ينتهي هذا الأمر."

ورغم أن ماري احترمت نصيحتها إلا إنها كانت قد بدأت تشعر أنها يجب أن تذهب وقالت: "ماذا لو كان المريض هو أنت

أيها الرئيس إديم؟ أما كنت تريدني أن آتي إليك وأساعدك؟" هز الرئيس كتفيه وكرر تحذيره قائلاً: "لا تذهبي."

ظلت ماري طوال تلك الليلة تتقلب وهي تتصارع حول ما يجب عليها أن تعمله. لقد جاءها شخص ما يطلب مساعدتها، ولكن إذا ذهبت قد تتسبب في وضع قرية إكينجي بأكملها في خطر .. ولكن عند صياح الديك عند بزوغ أول شعاع من ضوء الشمس في الأفق، كانت قد حسمت أمرها. إنها ستذهب وتعالج الرئيس المتألم، وكانت تعلم أن الرئيس إديم لن يكون راضياً فقد أظهر الرئيس عدم رضاه عندما أعلنت قرارها. ولم يكن أمامه ما يفعله لها إلا أن يأمر بقتلها ليووقفها عما ترمع عمله.

تركت ماري تعليمات بخصوص العناية بأطفالها وتبعت العداء في اتجاه الغرب داخل الغابة. وأخذت تصلي أثناء سيرها. فقد كانت مشغولة بالرئيس المريض. وبوصولها إليه في الوقت المناسب، كما كانت مشغولة بالمحنة الخاصة بالوصول إلى القرية إذ كان عليها أن تتجنب الحيوانات المميّنة مثل النمر والتماسيح والثعابين بخلاف الحاجة إلى عبور العديد من الحدود بين القبائل. كما أن الجو كان ممطراً لعدة أيام فقد تحولت جداول المياه التي كان عليها أن تعبرها إلى تيارات جارفة. استمر المطر يتدفق حتى جعل مجرد السير أمراً يتزايد

صعوبة، والتصقت أحذية ماري في الوحل وكان سحبها لتحريرها في كل خطوة يتطلب مجهوداً جباراً. وبعد ساعتين من الصراع أشارت ماري إلى العداء ليقف فقد حان الوقت لأن تصبح عملية، فخلعت حذاءها وجوربها. عرض عليها العداء أن يحملهم لها. ثم فحصت أهداب جونلتها الصوفية وملابسها الداخلية البيضاء فكان كلاهما معجونين بالوحل وأثناء قيام ماري برفعهما، شعرت أن كل منهما لابد أن يحتوي على خمسة أو ستة أرتال من الوحل. فخلعتهما أيضاً وظلت واقفة في وسط الغابة الأفريقية وهي غير مرتدية سوى شريط قطني يغطي من رقبته حتى ركبتيها كاشفاً عن ساقيه وذراعيها العاريان. مما كان يعد شيئاً فاضحاً للناس في اسكتلندا. وقالت للعداء: "الآن يبدو الأمر أفضل."

واستمرت ماري والعداء في السير وكانت ماري تسير بجوار العداء إذ قد تخلصت من ملابسها التي كانت تنقل جسدها. ومروا خلال عدة قرى حيث كان الناس يقفون ببساطة وهم مصدومون يحملقون في المرأة البيضاء ذات الشعر الأحمر المرتدية شريطاً من المنسوجات القطنية.

وعند وصول ماري والعداء إلى القرية في وقت متأخر بعد الظهر، كان المطر قد توقف واخترقت أشعة الشمس الذهبية

الموجة العظيمة من السحب الداكنة. وكانت جماهير من الرجال المتسلحين حول كوخ الرئيس بينما كانت النساء يتجمعن في مجموعات صغيرة وهن يبكين. وتساءلت ماري في نفسها عما إذا كن يبكين الرئيس أم يبكين حقيقة أن موته سيعني موتهن كذلك.

أقيدت ماري تحت الحراسة إلى كوخ الرئيس وهو عبارة عن حجرة مدخنة بها كومة من الجماجم البشرية مرتبة بعناية في أحد الأركان البعيدة. وسألت ماري: "هل لي بمصباح من فضلكم؟" أحضروا واحد لها .. تقدمت ماري خطوة إلى الأمام لتفحص الرئيس الذي كان ضعيفاً جداً ويبدو أنه كان يشتهي من مشكلة في المعدة. فأخرجت ماري بعض الأدوية من حقيبتها وخلطتها بالماء وقالت للرئيس: "إشرب هذا. وبعد ذلك سوف أصلي من أجلك." وأمرت ماري واحدة من النساء أن تصنع بعضاً من شوربة نوع من البطاطا. وعندما وصلت قامت ماري بوضع بعض قطرات منها في ملعقة وأدخلتها إلى فم الرئيس. أدركت أن الرئيس لم يتناول طعاماً منذ عدة أيام. ربما لأن أحداً لم يرد أن يكون آخر شخص يطعمه قبل أن يموت مما سيجعل الشخص موضع شك واضح في تسميم الرئيس.

وقامت ماري بتغذية الرئيس خلال الليل بقطرة أو إثنين كل

مرة. وعند شروق الشمس كان الرئيس قد بدا أحسن حالاً. واستمر الرئيس في التحسن خلال اليوم. وفي الليل بعد قيامها بخدمة مسيحية، راحت ماري في نوم عميق. وفي اليوم الثالث شعرت بالثقة أن الرئيس سيشفى تماماً، وعندما أعلنت هذه الأخبار للقرية بدأت النسوة في البكاء واندفعن إليها وركعن أمامها واضعات رؤوسهن على الأرض الرطبة. وقلن لها وهن يمسكن بقدميها: "لقد أنقذت حياتنا فلو أنك لم تأتي لكنا قد هلكنا جميعنا مع رئيسنا، ستكونين دائماً أماً ونحن سنكون أطفالك."

كانت رحلة العودة إلى إكينجي مختلفة تماماً عن رحلة الذهاب إلى القرية. فإن حوالي أربعين شخصاً من أهالي القرية أصروا على حراسة ماري طول الطريق وهم يرثمون ويؤلفون أشعاراً عن (أهم البيضاء) وهم يسيرون. وفي كل قرية يمرون بها كانوا يتوقفون ليخبروا عن عناية ماري برئيسهم. لم تكن ماري تحب قط أن يعمل لها موكب، لكنها علمت أنها قد ربحت أصدقاء جدد طول الطريق. وهنا خارجاً في الغابة الأفريقية كانت ماري تحتاج إلى كل الأصدقاء الذين يمكنها الحصول عليهم.

الفصل الرابع عشر

أهنا كنا

عادت ماري إلى إكينجي وبدا أن الرئيس إديم كان مسروراً لوصولها سالمة. شعرت أن وجودها في قريته كمرسلة لها خبرة بالأدوية كان قد أعطاه كرامة في كل المناطق المحيطة بقريته. وعلى أي حال فإن ذلك لم يعط ماري الوضع الكافي لجعل أي شخص يبني بيت الإرسالية الكبير الذي وعدت به قبل انتقالها إلى القرية. مما سبب لها الكثير من الإحباط. وكثيراً ما طلبت ماري من الرئيس إديم أن يأمر بالبدا في العمل في كوخها الجديد والمدرسة. لكن الرئيس كان دائماً يعطيها نفس الرد: "أصبري. إنه ليس موسم البناء بعد."

ولم تكن ماري متأكدة إن هناك مثل هذا الموسم موسم البناء، وكانت تستعرب لماذا يصرف رجال القرية ساعات طويلة كل يوم وهم مستلقون سكارى، ولا يمكن إصدار الأمر لهم بالعمل في المشروع، ومع ذلك فقد كانت تعلم أنه من الأفضل عدم الضغط على هذه النقطة، لذا فقد قامت بشغل نفسها بطرق أخرى.

منذ لحظة وصول ماري إلى إكينجي كان الناس يسألونها متى ستبدأ في تعليمهم القراءة والكتابة أو (الكتاب) كما يقولون. وقد شعرت ماري في أواخر عام ١٨٨٨ إن احتياجات القرية الطبية قد أصبحت تحت السيطرة، لدرجة أنها يمكن أن تركز على تعليم الشعب .. وأعطاهم الرئيس إديم التصريح بالبداية. وفعلاً حضر الدرس الأول في مدرستها كل شخص في القرية بجانبهم الرئيس إديم و(ما إيمي) والنبلاء والعبيد والأطفال حتى الكلاب .. ولم يكن لدى أي شخص في القرية أي فكرة عن ما هي القراءة إلا إنها عبارة عن الحديث إلى قطعة من الورق قد لاحظ الناس ماري وهي تفعل ذلك لفترات طويلة وها هم الآن يريدون كلهم أن يفعلوا نفس الشيء.

وفي خلال أسبوعين هجر معظم الناس الفصل فقد كان تعلم القراءة يمثل عملاً كثيراً جداً بالنسبة لهم حيث أنهم كانوا يتوقعون أن يتمكنوا من القراءة بطلاقة بعد قليل من الدروس. فعاد معظم الرجال إلى شرب الخمر والاستلقاء طول اليوم فلم يتبق لـ ماري سوى عدد قليل من أطفال العبيد الذين أمرهم أسيادهم بالاستمرار في التعليم. وبالرغم من قلة عدد من يحضرون الدروس فإن ماري لم تحبط. فلقد كان الأطفال الذين

تركوا معها أذكىاء ويقدرّون الساعة التي يقضونها يومياً في المدرسة بعيداً عن أعمالهم.

وفي نفس الوقت الذي بدأت فيه تعليم القراءة والكتابة، قامت ماري بالاتصال بالقرية المجاورة قرية (إفاكو) التي تبعد عن إكينجي مسيرة نصف ساعة على طريق خشن وموحل. وعندما علم الرئيس هناك أن ماري كانت تقوم بتعليم الناس في إكينجي (الكتاب)، قام بدعوتهما لتعليم شعبه هو أيضاً. وقبلت ماري فرصة بالذهاب إلى إفاكو بانتظام .. وكانت ماري قد تركت لبس الأحذية منذ مدة، مفضلة السير حافية القدمين على طرق الغابة الموحلة ونتيجة لذلك أصبحت نعال قدميها قاسية مثل جلد الأحذية.

وكانت ماري ناجحة في دراسات الكتاب المقدس نجاحاً عظيماً وهي التي بدأت تعقدها في الأمسيات في القرى. كان الجميع يحبون الترانيم الإنجليزية الاسكتلندية القديمة التي ترجمتها إلى لغتهم. وكانت تلعب على الأرغن بينما كان الأطفال يلعبون على الطبول والطمبور وكل ما كان ينقص هؤلاء القليوب المرمنون من الألحان الإنجليزية كانوا يعوضونه بمجرد الهتاف والحماس.

وفي إكينجي ذات ليلة بعد درس الكتاب سمعت ماري

أصواتاً كثيرة حول مكان الاجتماع العام حيث كانت تعقد الجلسات الخاصة. وتعجبت متسائلة عما يحدث، ولما كانت على علم بمعظم الأحداث الاجتماعية التي كانت في القرية فقد قررت أن تتحرى الأمر، وما أن إقتربت أكثر إلى مصدر الصوت استطاعت أن ترى أن القرية تقريباً قد تجمعت على شكل دائرة. وكان القرويون في حالة جنون، يصيحون ويصرخون وضربات الطبول تخفق في أذان ماري والدخان المتصاعد من مشاعل الفتيل يحرق أنفها وهي واقفة في مؤخرة الجمهور.

وفجأة تقبب الهواء صرخة. زحف على ماري شعور بالخوف. هل هذا واحد آخر من عقوباتهم القاسية؟ شقت ماري طريقها إلى مقدمة الجمهور حيث رأت امرأة شابة مستلقية عارية على الأرض وبداها وقدمها مربوطات مع أوتاد وبجانبيها كان إناء كبير من الزيت الذي يغلي ومحارب في رداء من جلد النمر يرقص حوله. وفي الحال علمت ماري ما سوف يحدث كانت المرأة الملقاة على الأرض على وشك أن يُصب عليها زيت يغلي. ودون أن يتوقف دق الطبول والضحك والتهليل انخفض وقد تركزت كل العيون على الصغيرة ذات الرأس الأحمر التي كانت تتدخل في أمر من أمور العدالة القبلية.

حدقت ماري في المحارب الذي كان يمسك بمغرفة مليئة

بالزيت الساخن. ووقف المحارب لحظة ونظرة ارتباك على وجهه، ثم بدأ يرقص بجنون وهو يصرخ صرخات تشبه صرخات الحرب. متجهاً صوب ماري.

عادت ماري بذاكرتها حين كانت تلك الشابة الصغيرة في شوارع داندي الخلفية وأمامها البلطجي وهو يدير قطعة المعدن الثقيلة والمسنونة نحوها - وكما كانت تعلم عندئذ - فقد علمت الآن أنها لن تستطيع التنحي. ويجب ألا يري المحارب أي خوف على وجهها. رفعت ماري صلاة داخلها، بينما كان المحارب يتقدم مقترباً إليها والزيت الساخن يلمع منذراً بالسوء في طاسة المغرفة. وكان كل شيء هاديء تماماً فيما عدا صوت أقدام المحارب وصوت حفيف الزيت في المغرفة.

وأخيراً حانت اللحظة التي وقفت فيها كل من ماري والمحارب وجهاً لوجه. ولم يستطيعا الاقتراب أكثر من بعضهما. فإما أن يقوم المحارب بضرب ماري بمغرفة الزيت الساخن أو أن يتراجع بعيداً فوقف يحرق في ماري وهي تحرق فيه، ثم ألقى المحارب المغرفة على الأرض وهو يطلق صرخة إمتعاض وظل بعيداً عن ماري.

إرتفعت شهقة جماعية من الجمهور. لقد تصدت (الأم البيضاء) لأحد المحاربين الذي تراجع أمامها. وثارت الفوضى

وابتداً كل واحد يتكلم، فلقد كان المنظر أشد المناظر التي رآها الجمهور إثارة للدهشة. وفي وسط الإرتباك سلك المحارب مبتعداً وتحولت ماري إلى الرئيس إديم لكي تدافع عن حياة المرأة ولم يرد الرئيس أن يستجيب لطلب ماري. فقد وقفت ماري في مواجهة عاداتهم وربحت. وانحنى ماري إلى أسفل وحلت وثاق المرأة وهي تشعر أن أحداً لن يوقفها. ثم ساعدتها للوقوف على قدميها .. وانقضى الجمع وحرست ماري المرأة عائدة بها إلى الكوخ الطيني.

تجمدت المرأة بسبب الصدمة أكثر منه لأي سبب آخر والحق أن القرية كلها ظلت في حالة صدمة لعدة أيام ومضى القرويون يتساءلون كيف أمكن لامرأة أن تتحدى قوة عاداتهم؟ هل كانت عقيدتها أقوى من عقيدتهم؟ كانت العقيدتان تؤمنان بالكلي القدرة - كلي المعرفة - الخالق. وكان الأفارقة يسمونه (الإباسي) لكنهم كانوا يؤمنون بأن الإباسي أرادهم أن يمارسوا أعمالاً قاسية وأن يكونوا محكومين بالسحر والخرافات. وهم يتساءلون عما إذا كانوا مخطئين وأن الإباسي ربما كان أشبه بالإله الذي وصفته ماري. ليس فقط كلي القدرة بل أيضاً صالح ورقيق. واستأسرت هذه الأفكار كل أهل القرية، رجالاً ونساءً، العبيد والأحرار، صاروا يناقشون السؤال إلى ما لا

نهاية بينما كانت قصة ما قد فعلته ماري يتجاوب من قرية إلى أخرى.

ولم تكن ماري تعلم في وقتها أن هذه الحادثة ستكون الأولى من أحداث كثيرة التي ستتصدى فيها القوى الروحية للأفارقة المحليين. وكانت تلك الحادثة أيضاً هي التي خلقت أسطورة في كالابار هي أسطورة (أمانا كلنا).

وقد سمح أخيراً للمرأة التي أنقذتها ماري أن تعود إلى زوجها وكان قد حكم عليها بالتعرض لصب الزيت المغلي على معدتها لأنها قد أعطت شريحة من الخبز لرجل لم يكن زوجها فقد كان يعتبر في إكينجي جريمة أن تتشارك في الأكل مع شخص آخر غير زوجها .. كانت ماري ترجو أن تكون تلك الحادثة ستكون مساعدة في التخلص من الكثير من القوانين القاسية والخزعبلات القاسية. لكن التغير جاء بطيئاً تتخلله الكثير من حالات خيبة الأمل والمعوقات. وقد حدثت إحدى حالات خيبة الأمل بعد أيام فقط من تخليص ماري للمرأة من الزيت الساخن.

صار الرئيس إديم مريضاً وأرسل في طلب ماري. كان مستلقياً في الفراش على بطنه واستطاعت ماري أن تشم الرائحة النتنة المعتادة وعرفت ما هي المشكلة قبل حتى ما تكون لديها

فرصة لفحصه .. فعلاً كان على ظهر الرئيس إديم خراج ضخم مشدود في حوافه وعندما مدت ماري يدها ولمسته بلطف صرخ الرئيس من الألم. وصلت ماري فإن الرئيس المريض كان أمراً خطيراً فلن تكون حياته هو وحده في خطر بل حياة كل المدينة معه. وبعد فحص الجرح المتعفن قررت ماري أن كمادة دافئة ستكون هي أفضل شيء يوضع على الخراج، وكانت ترجو أن مزيج من الأعشاب والمستحضرات الطبية ستقوم بسحب السم من الخارج. لكن هذا لم يحدث على أي حال. وإذ ساءت حالة إديم أصبحت ماري يائسة، لكنها لم تكن طبيبة ولم تستطع التفكير في أي شيء آخر لتفعله له.

وبعد يومين من الألم والعذاب أخرج الملك إديم، ماري خارج كوخه وطلب استدعاء الطبيب الساحر. وجلست ماري خارجاً وهي تصلي بينما كان الطبيب الساحر في الداخل مع الرئيس. وبعد نحو ساعة خرج الطبيب الساحر بنظرة منتصرة على وجهه وابتسم إلى ماري وبصق وهو يقول: "ها.. إنك لا تعرفين شيئاً عن الأمراض ولا عجب أن يظل الرئيس مريضاً. أنظري إلى الأشياء التي سحبتها من جسده." وجلس القرفصاء بجوار ماري، وفص قطعة قذرة من القماش حيث كان بداخلها بعض قشور البيض المحطمة، وبضعة أظافر وأكياس من

مسحوق البارود والطلقات الرصاصية. وكان يمكن لماري أن تضحك بصوت عال. إلا إنها علمت أن الطبيب الساحر كان لديه القوة ليقنع الجميع في القرية أن تلك الأشياء الموجودة في قطعة القماش كانت تطفو داخل جسد الرئيس.

وقال الطبيب الساحر بمكر: "إنها النساء." لقد قامت النسوة بعمل تعاويذ ووضعتها داخل جسد الرئيس، وعليه فقد أخبرني الرئيس إديم أنه يجب أن يتم اكتشاف النساء المسئولات وتقيدهن في ساحته. "ومرة أخرى شعرت ماري بالعجز مقابل مثل هذه الخزعبلات الشريرة، فيستطيع الطبيب الساحر أن يقول ما يشاء ويتهم أي امرأة يريد اتهامها بأنها السبب في مرض الرئيس وعندها سوف تقتل تلك المرأة بطريقة الحبوب المسمومة.

فقد كانت هذه هي الطريقة المطبقة في كالابار. كانت الحبة المميّة تطحن وتمزج بالماء لتصبح مشروباً وأي شخص يشربه في أن يكون متورطاً في جريمة سحرية كان يجبر على ابتلاع المشروب. وكان يحدث أحياناً أن يتقيأ الشخص هذا المشروب قبل أن يصل إلى معدته وكان بذلك ينجو من الموت. لكن تسعة وتسعين من كل مائة شخص ممن أجبروا على شرب المشروب المسموم كانوا يموتون حيث أن الطبيب الساحر قد أخبر الأهالي

أن مشروب الحبة المسمومة لن يقتل إلا الشخص المذنب فعلاً، فإن كل حالة وفاة كانت تؤكد مذنوبيته.

تحركت ماري وسط الثلاثين امرأة أو نحوهم المقيدات في ساحة بيت الرئيس وهي تصلي معهم وتحاول تشجيعهم وكانت السيدات في حاجة إلى الطعام. لكن عقوبة إطعام أي مسجون كانت الموت .. جلست ماري مع السيدات خلال الليل وهي ترجو أن يبتعد الحراس ويذهبوا لشرب الخمر حتى تتاح لها الفرصة لتهريب بعض الطعام إلى المسجونات. ولكن لأن الموقف كان خطيراً جداً فإن الحراس لم يتركوا أماكنهم ولا مرة واحدة. وفي حوالي الثانية صباحاً كانت حالة الرئيس قد ساءت وجاء الطبيب الساهر لكي يرش المزيد من أدويته ويخرج بعدها محصولاً جديداً من الأشياء المفترض أنها كانت في جرح الرئيس إديم وكانت الحصى هذه المرة تشمل عدداً من الريش وبعض شذرات عظمية. ونتيجة لذلك تم إضافة المزيد من النساء إلى المجموعة وكان الجميع مقيدون معاً بسلاسل في ساحة الرئيس.

وفي فجر سارت ماري إلى كوخ الرئيس إديم وتوسلت إليه أن يفك رباط النساء المقيدات في الساحة. لكن الرئيس - الذي لم يكن قد ذاق طعم النوم طوال الليل - حمى غضبه على ماري

فكيف تتجاسر على التدخل في طرق القبيلة؟ وكان كل ما عرفه أن الآلهة كانت تعاقبه لسماحه بدخولها إلى القرية لكن ماري أخبرته بكل شجاعة مرة أخرى عن محبة الله. لكن هذا زاد من غضبه حتى أمر حراسه أن يخرجوه وكل النساء الموجودات في الساحة إلى إحدى مزارعه البعيدة وأمر ماري ألا تتبعه.

وعند وقت الغذاء كانت الساحة فارغة وساكنة فقد خرج الرئيس وكل النساء ولم تستطع ماري أن تفعل شيئاً غير الانتظار والصلاة. وانقضى اليوم وتم ضم المزيد من نساء القرية وسحبهم - وهن ينحن ويبكين - إلى مزرعة الرئيس. وممر يوم آخر ثم جاءت (ما إيمي) وهي تزحف داخل كوخ ماري وهمست لها بالأخبار العظيمة. إن الرئيس إديم يتعافى ولم تكن هناك سوى مشكلة واحدة فإن الرئيس كان قد حكم على كثير من النساء السجينات بالموت. أصيبت ماري بالجنون وكان لابد من إيجاد طريقة لإنقاذهن .. كان عليها أن تفكر في طريقة، كانت تشعر أن (ما إيمي) هي الأخرى تريد أن تنقذهم.

وفجأة جاءت الفكرة، كان عليهما أن تقنعا الرئيس أن أعظم ما يمكن عمله سيكون هو إطلاق سراح جميع النساء. وفكرت ماري أنها تعرف كيف تفعل ذلك، فاستدارت إلى (ما إيمي) وعيناها تلمعان وقالت لها: "عليك أن تعودى إلى أخيك وتخبريه

أن الكثير من الناس سوف يحترمونه إذا هو أطلق سراح كل النساء فإن ذلك سيظهر للجميع أن لديه قوة أعظم مما لديهم وأنه لا يخاف مما يفعلونه في حالة عدم قتلهم". ملأت إيتسامة وجه (ما إيمي) وهي تقول: "إنك ذكية جداً فلا يوجد رئيس يريد أن يظهر للناس كأنه جبان، سوف أذهب إليه".

انتظرت ماري في قلق عودة (ما إيمي)، وعندما عادت كانت معها كل نساء القرية. لقد أطلقهم الرئيس أحراراً. كانت ماري شديدة الفخر رغم أنها أضافت أن الطبيب الساحر أصر على كون إحدى الإماء هي المسؤولة عن مرض الرئيس، ولكن حتى هذه الأمة - أضافت (ما إيمي) بسرعة وهي شديدة الافتخار - لم تعط مشروب الحبوب السامة .. ولم تقل بعد ذلك أن تلك الأمة قد بيعت إلى قبيلة (الأبنوكون) التي كانت معروفة بوحشيتها بأكل لحوم البشر وخاصة لحوم العبيد الذين تشتريهم من القبائل الأخرى.

كان يبدو أن كل يوم جديد في إكينجي يأتي معه ببعض الأزمات أو التحديات بالنسبة لـ ماري التي امتدت سمعتها في طول المقاطعة وعرضها. وكان هذا يعني أن مبعوثين من قبائل أخرى كانوا يصلون دائماً ليطالبوا مساعدتها في إحدى الأمور الطبية أو لتسوية منازعة ما. كما كانت هناك أيضاً أوقات تكون

فيها ماري مرهقة تماماً بحيث لا تستطيع الاستمرار في عملها خاصة بعد أن تكون قد أمضت ليلة بلا نوم في كوخها فإن حياتها في ساحة الرئيس إديم ومع زوجاته الكثيرات وخدماته كان يعني إيقاظها في أي ساعة من ساعات الليل بواسطة الرئيس أو ضيوفه السكارى. وبعد شهور من النوم القليل كانت ماري محتاجة مكان هاديء يمكن أن تسميه بيتها، حيث تستطيع أن تصلي بعيداً عن الأنظار - أنظار العيون المتلصصة - وتربي أطفالها في سلام وتدير مدرستها باستمرار وكذلك كنيستها الصغيرة.

لم يكن يبدو أن طلب كوخ خاص بها يمكن أن يكون كثيراً عليها. لكن ماري كانت تعلم أن الرئيس لن يسمح ببناء كوخ خاص لها إلا عندما يرغب هو في ذلك ليرحب ببقائها باستمرار في وسط القبيلة، فحتى الآن هي لازالت تحت الاختبار، وبعد فشلها في شفاء خراج الرئيس ظلت تتساعل عما إذا كانت أيامها في إكينجي أصبحت معدودة أم لا.

ومن دواعي الشكر أن الرئيس إديم لم يكن يحتفظ بأي ضغينة، ففي يناير من عام ١٨٨٩ استيقظت ماري يوماً على صوت قطع سكاكين وفؤوس، ولسبب ما لم تستطيع ماري التوصل إليه قط ، أعلن الرئيس أنه فضل البناء. وأخيراً كانت

الفصل الخامس عشر

قدر ضئيل من المساعدة

أيقظت ماري الأطفال وهرعت إلى الموقع على حافة القرية حيث كان مقدرًا أن يكون بيتها الجديد. كانت المساحة مزدحمة بالناس الذين يدوسون على بعضهم البعض في حماسهم للعمل. وابتسمت ماري وهزت رأسها .. هل سيأتي اليوم الذي ستفهم فيه العقلية الأفريقية؟ فلم تكن أمس تستطيع أن تحفر شخصاً واحداً ليساعدها في نقل الماء إلى امرأة تعاني من آلام الوضع. وها هي اليوم ترى كل القرية وقد اتحدت للعمل بعنف في جذوع الأشجار بالسكاكين والفؤوس وتحفر الجذور بآلات مسننة.

ضح الناس وهللوا عندما رأوها وهي تشرف على الموقع وتحقق أنها تحتاج للعمل بسرعة لكي يكون أكثر الترتيبات عملية بالنسبة لها واستقرت على مطبخ وكوخ لمعيشتها وكوخ للبنات وآخر للأولاد وثالث لها شخصياً على أن يكون طول كل كوخ ثلاثين قدماً وعرضه عشرة أقدام وأن توضع في الموقع على هيئة ثلاثة أضلاع لمربع مما يسمح لها أن تبني - ذات يوم - بيتاً أكبر في الوسط وتستخدم الأكواخ الثلاثة كأماكن

تقدم العمل بضجيج عالٍ، وبالرغم من المستوى العام للفوضى وعدم النظام بدأت الأكواخ تأخذ شكلها على الموقع. ثم أولاً حفر خندق في المكان الذي ستقام فيه جدران كل كوخ، ثم وضع الرجال فروعاً ضخمة ذات أشواك في كل ركن من أركان الكوخ بحيث تكون الأشواك موجهة إلى أعلى إذ كانت هي السند للسقف كما تم وضع أغصان مائلة لتكون إطاراً، وألقى المزيد من الأغصان فوق هذا الإطار وتم تثبيتها بوضع حُصر فوقها وربطها جميعاً معاً. وتم عمل حوائط الأكواخ بنفس الطريقة إلا أنه بدلاً من إلقاء الحصر من الخارج تم تبليط الأغصان بالطفلة الكثيفة وتطيين الجدران ثم أشعلت نار كثيفة الدخان داخل كل كوخ جديد وترك الرئيس أديم بعضاً من عبيده للتأكد من بقاء النار مشتعلة طول الليل وأنها لن تمتد أكثر من اللازم فتحرق الإطارات الخشبية. وفسر الرئيس ذلك بأن النار كانت لإخراج الحشرات التي تعيش داخل الخشب.

وفي اليوم التالي بدأ عمل النساء في تبليط الأكواخ بالطفلة، وشاركت ماري في العمل بكل حماس، وبعد أن انتهيت من تطيين الجدران بدأت النساء في تأنيث الأكواخ من الداخل فبنين موقداً من الطفلة في المطبخ وألهم أحدهم أن يبتكر بناء دولاباً

من الطفلة فيه فتحات خاصة حيث تستطيع ماري أن تحفظ فيه الأواني الخزفية. كما عملت النساء منضدة لماكينة الخياطة الخاصة بـ ماري بل أيضاً مكان للجلوس.

وعند انتهاء أعمال الأكواخ، ذهلت ماري بكل ما قام به جميع أهل إكينجي لأجلها فما كانت لديها فكرة أنه يمكن عمل مثل هذه الأكواخ المريحة من الأغصان الجافة والطين .. بل كانت هناك أيضاً فتحات في الجدران للنوافذ والأبواب. وفي خطاب لها إلى كنيستها في اسكتلندا طلبت ماري عما إذا كان هناك من على استعداد للحضور إلى إكينجي ليركب إطارات النوافذ والأبواب في الفتحات المخصصة لها. ولم تكن فعلاً تتوقع قط أن يأتي أي شخص طول الطريق من اسكتلندا لكي يعمل مثل هذا العمل، لكنها شعرت أنه لا ضرر من الطلب.

وفي إحدى أمسيات يوليو الحارة عام ١٨٨٩ كانت ماري تجلس متربعة على الأرض الرملية عند بيتها الجديد - وهي تأكل سنابل القمح بيديها وهي محاطة بأطفالها الخمسة وأنواع مختلفة من الماعز والدجاج التي كانت تندفع للأمام كلما ألقى أحد الأطفال قطعة صغيرة من فضلات الطعام .. وبينما هي تأكل اعتقدت أنها سمعت صوتاً غير مألوفاً في الغابة فوقفت وصارت تصغي بانتباه .. وها هي تسمعه مرة أخرى. كان

صوت ترنيم، ولكن ليس مجرد أي ترنيم عادي بل كان ترنيم بصوت قوي باللغة الاسكتلندية.

سوت ماري ملابسها ورتبت شعرها المجعد القصير إلى الخلف فإنها كانت على وشك استقبال ضيف أوروبي وهو الأول لها منذ حوالي عام. وبعد دقيقة واحدة سمعت ماري صياحاً على الطريق ورأت عدة رجال من إكينجي يمدون أيديهم إلى بنادقهم فصرخت قائلة: "لا لا لا تطلقوا النار. إنه صديقي." وفي الحقيقة لم يكن لدى ماري أي فكرة عن كان القادم إلا أن له لهجة اسكتلندية. وعلى حين غرة دلف إليها من الغابة رجل قصير القامة ممثليء الجسم له لحية كثة وكان بصحبة رجل إفريقي طويل. اندفعت ماري للأمام لترحب بهما .. وقال الرجل الأوروبي مبتسماً: "السيد تشارلز أوفنز في خدمتك يا آنسة سليسور." ومد يده إلى الأمام ليصافحها قائلاً: "أعتقد أنك في حاجة إلى معونة صغيرة في تركيب بعض النوافذ والأبواب."

ضحكت ماري بصوت مرتفع، لقد وصلت معونتها رغم طول الطريق من اسكتلندا. ومن لهجة الرجل التي سمعتها أدركت أن الرجل كان من منطقة داندي. وفي خلال ساعات كان الاثنان في طريقهما لأن يصبحا صديقين عظيمين. كان (تشارلز أوفنز) قد أحضر لـ ماري حزمة من الرسائل وعدة

نسخ من الصحف من الوطن. وفي المقابل أخبرته ماري بكل شيء عن حياة الأفارقة في منطقة أوكويونج. كما علم تشارلز أيضاً أن ماري اعتبرت الأكواخ الطينية الجديدة هي بيتها المؤقت والحل لكل احتياجاتها. فإن ما كانت تحلم به هو بيت كبير يقع في المربع الذي تكونه الأكواخ الثلاثة. على أن يكون له مطبخ وحجرة معيشة في الطابق الأسفل وحجرات نوم لها ولأطفالها في الطابق الأعلى. وفي نفس الزمان والمكان قرر تشارلز أوفنز أنه سيبني لـ ماري البيت.

وبعد بضعة أيام ابتداء تشارلز يرسم الخطط للبيت، وكتب قائمة للمواد التي يريد طلبها من ديوك تاون وأثناء عمله انفجرت أزمة أخرى في القرية واستطاع أن يرى بنفسه كيف استطاعت هذه المرأة الصغيرة الآتية من داندي التعامل مع الأهالي.

كان الوقت منتصف فترة بعد الظهر وقد ابتدأت ماري لتوها في طحن بعض الحبوب لعمل دقيق يستخدم في وجبة المساء. وأثناء عملها سمعت صوت خبطة تالية كما لو كان شيء ثقيل قد سقط، وتبع ذلك سلسلة من الأنات المرتفعة فصاحت: "يبدو أن شخصاً ما قد أصيب يا تشارلز." اختطفت حقيبتها الطبية وركضت في اتجاه الصوت يتبعها تشارلز. وصلت ماري إلى

منطقة مكشوفة حيث أن ابن الملك إديم الأكبر إيتيم بيني كوخاً لنفسه وفي لحظة واحدة استطاعت ماري أن ترى ما حدث. كان إيتيم يحاول تحريك فرع ثقيل يستخدم كدعامة بمفرده. وسقط الفرع فوقه مثبتاً إياه تحته .. إندفعت ماري وتشارلز إليه ودحرجا الفرع بعيداً عنه.

حثت ماري الرجل قائلة: "حرك ساقيك، أرني أنك تستطيع تحريك ساقيك". ظهرت على وجه إيتيم نظرة تركيز حادة لكن بلا فائدة فلم تكن ساقاه تتحركان. غمغمت ماري بالإنجليزية قائلة لـ تشارلز: "ليساعدنا الله كلنا فلقد أصيب بالشلل". اقترح تشارلز قائلاً: "دعينا ننقله إلى أحد الأكواخ" وأمسك بعمودين من نبات البامبو من كومة كان إيتيم قد وضعها في أحد الأركان، وخلع قميصه وربط به العمودين مكوناً منهما نقالة وقال: "إحملي أنت ذراعيه وسأحمل أنا ساقيه عندما أصل في العد إلى ثلاثة .. واحد .. إثنين .. ثلاثة." ثم رفع إيتيم وهو يطلق أنيناً عالياً ووضع فوق النقالة التي صنعها، وبدأت ماري وتشارلز في سحبه إلى كوخ ماري. وكان الألم الناجم عن الحركة أكبر من أن يحتمله إيتيم فراح في غيبوبة.

وأثناء الطريق غيرت ماري رأيها وقالت: "لا .. كان من الأفضل أن نذهب به رأساً إلى الرئيس فيبدو أنه يمكن أن يموت

في أية لحظة." وقبل أن تصل ماري وتشارلز إلى ساحة الرئيس ومعهما إيتيم، كان الخبر قد انتشر فوقفت النساء يرتعدن أثناء مرورهم ومزق الأطفال فزعين وصلصل الرجال الكبار في السن بالعظام على مقدسات أسرهم .. وتساءل تشارلز قائلاً: "لماذا يبدو الجميع خائفون هكذا." أجابت ماري بجنون قائلة: "لا يوجد في عقيدة أفريقيا شيء اسمه حادثة، فلو أنه مات فلا بد أن يلام أحداً ما أو كل الناس على التسبب في حدوث ذلك."

قابلهم الرئيس إديم على باب كوخه وساعد في حمل ابنه إلى الداخل. وعمل كل من ماري وتشارلز كل ما في استطاعتها لجعل إيتيم مستريحاً لكن كان يبدو أن هناك أمل ضئيل في أنه سيعيش طويلاً. وظلت ماري معه إذ مرت الدقائق لتكون ساعات وأيام والأيام إلى أسابيع. وكان إيتيم يبدو واعياً في بعض الأحيان وأحياناً أخرى يغيب في اللاوعي. وبينما كانت ماري تراقبه كان لديها الوقت الكافي للتفكير. فلقد كانت مقتنعة أنه إن لم تحدث معجزة فلا بد أن ينتهي الأمر بموته، وعندها سيكون هناك سفك دماء كثير بطريقة أو أخرى ولن تستطيع أن توقفه. كان من غير المجدي أن تقول للناس المحليين أن أحداً لم يتسبب في الحادثة فقد تكون حدثت بدون سبب معين.

فإن هذا الكلام كان غريباً جداً بالنسبة لهم حتى يستطيعوا

قبوله، وعليه فلا بد أن يكون هناك طريقة أخرى. وأثناء ملاحظتها للطابور الطويل من الناس الذين يدخلون إلى الكوخ لكي يقدموا احترامهم توصلت إلى فكرة. كانت تدرك أنها قد لا تنجح، لكنها كانت أفضل فكرة توصلت إليها.

وبعد أسبوعين كان إيتيم قد قارب الموت رغم أفضل جهودها، لم تستطع ماري أن تغريه بتناول أي طعام منذ وقوع الحادثة. وقد أصبح تنفسه ضعيف وغير منتظم وقد بذلت جهوداً يائسة لإنعاشه فقد قام الطبيب الساحر بتدليك فلفل ساخن في عينيه ونفخه في أنفه، كما فتح فمه عنوة ونفخ فيه وفي أنفه دخاناً. وتوصلت إليه ماري أن يكف عن تعذيبه لكنه أصر على محاولة إعادة الروح إلى جوفه كما ساعد في ذلك بقية أعضاء الأسرة أيضاً بالصراخ في الصلاة إلى روح الشاب حتى لا تفارقه لكن بلا طائل. فقد مات إيتيم أخيراً.

صالت ماري صلاة مختصرة من أجل إيتيم وانسحبت خارجة من الكوخ ونادت على أحد عبيد (ما إيمي) وأعطته رسالة وطلبت منه ألا يتوقف حتى يسلمها إلى المرسلين في ديوك تاون وكانت متأكدة أن (ما إيمي) ستوافق على إعادة أحد عبيدها في أزمة مثل هذه. وعند عودة ماري إلى بيتها لتجد تشارلز أوفنز بالأخبار السيئة، كان قد خمنها فقد كانت القرية

في هياج من الصراخ والعيول في كل مكان وكان الناس يتراكمون بلا هدف في جميع الاتجاهات. وكان الرجال يحملون حراهم استعداداً للثأر لموت ابن رئيسهم.

كانت ماري قد توقعت الحركة التالية، فتم استدعاء الطبيب الساحر ليعلن عن كان مسئولاً عن موت إيتيم ولم يستغرق ذلك منه سوى بضع دقائق في معالجة عظام الجماجم بيديه واختبار أظافر إيتيم حتى يتأكد. ووقف في ساحة الرئيس لكي يعلن إعلانه قائلاً: "إنهم شعب كوري الذين قتلوا هذا الشاب فقد جاءت أرواحهم في الليل وانتظرت وهي تكمن في الغابة وعلينا أن نثأر لموته."

راقبت ماري في رعب بينما كان رجال القرية يرفعون حراهم في الهواء ويرقصون بوحشية في دوائر واستمروا كذلك حتى جاء أحد أخوة الرئيس أديم ليقودهم في الطريق للإغارة على قرية كوري.

أسرعت ماري عائدة إلى جثمان إيتيم وهي تصلي أن يحضر الرجال أسراهم أحياء ولا يقتلوهم على الفور. ومرة أخرى أدركت كم هو تافه رأي الأفارقة عن الأسباب والنتائج.. ففي الأسبوع القادم ستأتي فرقة حربية من قرية أخرى وتغير على إكينيجي لأن أحد رجالهم قد انزلق وسقط ومات على أحد

الطرق في مكان ما.

وأثناء هرولتها حملت ماري سروالاً مزيناً بالدبابيس مع جاكيت كانت قد تسلمته في صندوق ملابس أرسل إليها من داندي، كما حملت معها أيضاً حوالي إثني عشر ياردة من حرير أخضر كانت قد احتفظت به لتصنع منه ملابس للأطفال وكانت ترجو أن تستخدمها لتجعل إيتيم يبدو في صورة شخص عظيم لدرجة أن يسمح شعب إكينجي لروحه أن تدخل العالم الآخر بمفردها. وبدون أرواح أولئك الذين يتعين قتلهم لمصاحبتة.

وفي داخل الكوخ أسندت ماري جسد إيتيم على الحائط وبدأت تلبسه السروال والجاكت، وقامت بلف الحرير الملون حول صدره وبطنه. ثم طلبت من أحد عبيد الرئيس أن يبحث لها عن بعض البويات الحمراء والبيضاء التي لونت بها وجه إيتيم بطريقة دائرية محاولة أن تجعله يبدو أنيقاً وأخيراً أدخلت في أصابعه بعض الحلقات الرخيصة ووضعت قبعة بنية اللون على رأسه وغرست فيها بعضاً من ريش الدجاج وشبكته فوقها ووضعت على رأسه.

ثم صاحت من خارج باب كوخها قائلة: "تعالوا ساعدوني." نظر عدد من الرجال فأعلنت لهم قائلة: "يجب أن نكرم رجلاً عظيماً مثل إيتيم، أطلبوا من الرئيس أن يعطيكم مقعده ثم ضعوه

في ساحة النساء وعلينا أن نضعه فوقه حتى يستطيع كل شخص أن يرى كم يبدو مظهره عظيماً." أوما الرجال برؤوسهم وأسرعوا ليعملوا حسب تعليمات (الأم البيضاء).

وبعد ساعة كان جثمان إيتيم قد تم تلبسه فيما عدا الحذاء، ووضع على مقعد الرئيس في ساحة النساء. وتناوب عبيد الرئيس إديم في إمساك مظلة فوق الجسد لتظله. ووضعت ماري سوطاً ذا يد فضية في يد إيتيم اليمنى ومراة في يده اليسرى حتى يستطيع أن يعجب بنفسه في الحياة القادمة.

كان منظره غريباً أن ترى جسد الشاب الأسود مرتدياً ملابس لأول مرة. وكانت حوالي عشرون امرأة معظمهن يحملن أطفالاً وهن جالسات على مقربة وهن يترنمن بأغنيات مقصود منها أن تقود روح إيتيم إلى مكان راحة آمن. وما أن انتهت ماري من إكرام الجثة حينما حتى كانت الفرقة الحربية قد رجعت من كوري محضرين معهم إثني عشر أسيراً بينهم سيدتان وثلاثة أطفال والباقي من شباب الرجال في سن إيتيم تقريباً. وكانت ماري تستطيع أن ترى الرعب في عيون الأسرى وتعلم أن رعبهم كان له أساس قوي. فلو أن خطتها لم تنجح فسوف يقتل هؤلاء الأسرى من كوري وتلقى جثثهم في القبر معه.

لم تكن القرية متعجلة في دفن إيتيم فقد كان هناك الكثير من العمل ليعمل قبل أن يحدث ذلك فضلاً عن أن الرجال أخبروا ماري أنه كان من الأفضل أن يتعذب السجناء في هذه الحياة كما في الحياة الأخرى بسبب قتلهم إيتيم وقررت ماري فوراً أن تبقى هي أو تشارلز مع السجناء طوال الوقت ليكون لهما على الأقل فرصة لمنع قتل السجناء .. واختارت ماري وردية الليل رغبة في البقاء مستيقظة لثلاث ليال بينما يزداد أهل القرية سكرًا ووحشية. وعندما لم يكن تشارلز في نوبة مراقبة السجناء كان يقضي وقته في عمل كفن عظيم لـ إيتيم.

وأخيراً وبعد أربعة أيام بدأ جسد إيتيم الذي كان مركز الاحتفال والزينة يخرج رائحة كريهة، في حرارة أفريقيا الرطبة ووافق الجميع على أن الوقت قد حان لدفن إيتيم. وأثناء قيام الطبيب الساحر وحراس الجثة الثلاث المسلحون برسم خططهم اقتربت ماري إليهم أكثر راجية أن تسمع شيئاً عن مصير السجناء. قال الطبيب الساحر: "لقد طحنت ملء ثلاث ألف من الحبوب." غمغت ماري في نفسها قائلة: "إذا سيكون الإعدام بطريقة الحبوب السامة."

تطلع الطبيب الساحر إلى السجناء ثم قال: "فكوا رباط هذه." مشيراً إلى إحدى السجينات. أطاع أحد الحراس وقام بفك سلسلة

امرأة كانت مرتاعة جداً بحيث لا تستطيع الحركة، وكان يجب سحبها إلى كوخ الرئيس إديم. لم ترغب ماري في ترك السجناء الأحد عشر الباقين، وهي لا تعلم ماذا يمكن أن يفعله بهم الحراس لكنها كانت في موقف بائس فزحفت بهدوء إلى كوخ الرئيس. وفي الضوء المعتم استطاعت أن ترى الطبيب الساحر وهو يرفع الكوب الخشبي إلى شفتي السجينة وهو يصرخ قائلاً: "إشربي أيتها الشيطانة، إشربي" وهو يشد رقبتها إلى الخلف. لم يكن لدى ماري لحظة أخرى لتفقد فاندفعت للأمام واختطف يد المرأة وهي تصرخ: "إجري .. إجري."

أصيب الطبيب الساحر بصدمة شديدة حتى سقط الكوب الخشبي من يده إلى الأرض فانسكب محتواه القاتل بالكامل على الأرض. وفي غمرة الفوضى التي تبعت ذلك، ركضت ماري والسجينة خارج باب الكوخ وهربتا إلى منزل ماري الجديد. شكرت ماري الظروف التي جعلتها تصر على إعلان الرئيس إديم أن منزلها هو ملجأ آمن وملاذ. وإن كانت تشك في تمسكه بكلمته واحترامه لها في هذه الحالة. ومع ذلك فقد دفعت بالمرأة داخل الباب وهي مليئة بالأمل وصاحت: "خبئها بسرعة يا تشارلز." ثم أسرعت تركض زاحفة خارج الباب ثم أغلقته خلفها.

ركضت ماري متجهة إلى ساحة الرئيس لتحاول حماية السجناء الآخرين. وكانت تصلي وهي تجري ألا يكون الوقت قد فات. وألا يكون أحداً آخر قد أجبر على شرب السائل المسموم. وصلت وهي مقطوعة الأنفاس ولكن في الوقت المناسب. فقد كان الأحد عشر سجيناً الباقين على قيد الحياة.

حمي غضب الرئيس إديم على ماري فكيف تجرؤ هذه الأجنبية على التدخل في عادات القرية؟ ومع ذلك فقد حافظ على كلمته ولم يرسل أي شخص إلى بيت ماري ليسترد السجينة الأخرى. وفي نفس الوقت وقفت ماري وثبتت على موقفها مهددة أي شخص يحاول أخذ أي من السجناء الآخرين إلى داخل الكوخ لكي يتسمم. استمر الموقف هكذا لما يزيد عن يوم كامل وتعجب تشارلز من هدوء ماري في وسط كل هذه الظروف. ووثق بها حتى صارت أعصابه هو شخصياً على وشك الانفلات ولم يستطع أن يفكر تفكيراً صحيحاً.

وأخيراً وفي اليوم السادس بعد وفاة إيتيم حدث الحدث الذي كانت ماري تتوقع حدوثه، وكان الوقت هو بداية المساء عندما اندفعت مجموعة من المرسلين والأهالي المعاونين آتية من ديوك تاون إلى قرية إكينجي. وأثناء ترحيب ماري بهم بصوت عال أعلنت أنهم قد جاءوا ليقدموا احترامهم لـ إيتيم بطريقة

خاصة جداً.

تجمع القرويون حولهم ليروا ما قد يحدث. وخارج كوخ الاجتماعات وضع المرسلون منضدة وفتحوا حقيبة جلدية سوداء، أخرجوا منها مصباحاً حديثاً بتوصيلاته. ثم وضعوه على المنضدة وعلقوا ملاءة بين نخلتين.

أشعل واحد من المرسلين عود ثقاب وأضاء المصباح وللحال سرت شهقة إنذهال بين الجمهور تبعها صمت مطبق. كانت عيون كل فرد في القرية موجهة إلى الشاشة وسمعت ماري بعض الأمهات يهمسن لأطفالهن: "إنه سحر الرجل الأبيض". لقد أحضر المرسلون عرضاً بالفانوس السحري. وإذا وضعوا الشرائح الزجاجية بالصور المرسومة فوقها أمام الفانوس كانت الصور تعرض على الملاءة المعلقة بين النخلتين.

جلس الجميع مربعين أرجلهم ومسحورين بالصور التي يرونها. صوراً لم يكن من الممكن تصور رؤيتها، جبال تجر مركبات وقطارات بخارية وقصور عظيمة.

وعندما انتهى العرض شرحت ماري للقرويين أن المرسلين قد جاءوا ليكرموا إيتيم بطريقة جديدة. ليس بالقتل بل بالكلمات والصور، وكم كانت تأمل لو تستطيع إقناعهم أن يطلقوا سراح السجناء. وقد حدث .. فأمر الرئيس إديم - على مضض -

بإطلاق سراح السجناء واحداً بعد الآخر. وفي اليوم التالي تم دفن إيتيم في كفنه الجميل مع مظلته ومرآته وبقرة واحدة مذبوحة لتغذيته في الحياة الأخرى.

لقد استنفذ ذلك كل إيمان ماري وجهودها، لكنها استطاعت تحقيق المستحيل فلأول مرة في مقاطعة أوكويونج يتم دفن أحد أعضاء أسرة أحد الزعماء بدون سفك دم.

قالت ماري لنفسها - وهي تضع أطفالها في الفراش تلك الليلة - أنها قد تعيش حتى ترى الله وهو يكسر قيود الخزعبلات والعادات والممارسات الفظيعة السائدة في مقاطعة أوكويونج.

الفصل السادس عشر

شيئاً فشيئاً

لم تصدق ماري أن هذا اليوم الرائع قد جاء. كانت هي وتشارلز يقومان بتدشين الكنيسة الجديدة في إيفاكو ومعها بيت الإرسالية والعيادة الطبية في إكينجي. كان هناك الكثير من الاحتفالات وقد قدم عدد من الرجال المهمين من كلا القريتين كلمات تهنئة مطولة. ولما كانت ماري قد حرمت الروم والجين من الاحتفال، فبدلاً من جلوس الناس واحتساء الخمر والسكر بعد انتهاء الأحاديث قامت ماري باصطحابهم جميعاً في جولة حول البيت الرائع الذي شيده تشارلز أوفينز لها وللأطفال. وقد أعجب القوم بالدلف الزجاجة في النوافذ ووضعوا آذانهم فوق ساعة الحائط ليسمعوا دقاتها وأداروا طارة ماكينة الخياطة وهم يراقبون إبر الماكينة وهي تعلو وتهبط. وأطلوا على أشكالهم في مرآة الحائط وتبادلوا إمساك أكواب ماري الصينية. وكان بعضهم - بل بعض من أشجع المحاربين محجمون عن الصعود على السلم إلى الطابق العلوي فإنهم ربما لم يصعدوا من قبل إلا من على ارتفاع شجرة تسلقوها.

في تلك الليلة وبعد أن انصرف الجميع وتركوها، وتم وضع

الأطفال في فراشهم. جلست ماري وتشارلز حول النار وهما يتضاحكان على أحداث اليوم. قالت ماري بلهفة: "كم أتمنى أن يكون كل يوم مثل يومنا هذا." ثم أكملت حديثها وهي تحرك النار: "أتعرف؟ إنني لا أعتقد أنهم افتقدوا شرب الخمر، كانوا مشغولين تماماً. هل رأيت كيف كانوا مسحورين بالنوافذ ومقابض الأبواب؟" أوماً تشارلز برأسه وقال: "نعم، سيكون شيئاً عظيماً لو أنهم اشتغلوا وتبادلوا معاً منتجاتهم بدلاً من الاستلقاء في المكان وشرب الخمر." وافقته ماري على كلامه، لكنها كانت تعلم أن القليل جداً من التجارة كان يتم بين قبائل منطقة أوكويونج والقبائل الساحلية. والتجارة القليلة التي كانت تتم عادة كانت تتكون من بيع العبيد إلى القبائل الساحلية للحصول في المقابل على البنادق والروم والجبن والسلاسل.

وعندما اضطجعت ماري على فراشها في تلك الليلة بدأت تفكر كيف يمكنها أن تجعل شعب إكينجي يفهم أنهم يستطيعون إنتاج زيت النخيل والمحاصيل الدرنية ليتاجروا بها مع القبائل الساحلية بمبادلتها بأشياء نافعة أمثال الأوعية والمرايات وأدوات العمل. كانت بالطبع تعلم أن مثل هذه الأشياء لم تكن هامة حقاً بالنسبة لشعب إكينجي لكنها لو أمكن أن تحدد طريقة تجعل بها الشعب يتاجر فإن شيئين طبيين يمكن أن يتبعاً ذلك. الأول أن

تجعل القرية مشغولة دائماً ولن يكون هناك وقت للجلوس والسكر. والثاني أنه سيكون هناك معاملات ذات معنى وغير مميتة مع القبائل الساحلية.

وعند الصباح كانت لدى ماري خطة، سوف تدعو وفداً من قادة إكينجي ليذهب معها إلى جريك تاون حيث ستعرفهم بصديقها القديم الملك إيو وتطلب منه المساعدة في إقامة صلات تجارية بين القبيلتين. وقد رأى كل شخص في القرية مقاطعة الأعداء إذا لم يكن للسرقة أو القتل؟ ومع ذلك فإن ماري لم تكن لتستسلم. فبعد عدة أسابيع من إلحاح ماري على الرئيس إديم وافق أخيراً على إرسال مجموعة من القادة مع ماري إلى جريك تاون.

دبرت ماري أمر ملاحظة الأطفال مع (ما إيمي)، وفي الصباح التالي كانت مستعدة للذهاب. إرتابت ماري من أن يكون الرجال خائفين من القيام بالرحلة حيث أنها ستكون أبعد رحلة قام بها أيأ منهم إلى خارج قريتهم. وتأكدت شكوكها بسرعة عندما اقتربت من شاطئ النهر، كانت أصوات الصراخ والعيول تملأ المكان وقد تشبثت النساء بقيادة قريتهم قائلات: "لا تذهبوا فلن نراكم قط بعد ذلك. إن الآلهة لا يريدونكم أن تذهبوا وتتركونا." وكن يتوسلن وهن يبكين بحرقه.

نظر الرجال السبعة بخجل إلى ماري التي تولت قيادة الموقف على الفور وأمرت الرجال بركوب القارب. اهتز القارب بعنف من جانب إلى الآخر إذ اتخذ الرجال أماكنهم وسط شحنة القارب من جوز الهند والذرة والبطاطس وزيت جوز النخيل وخلافه. وظهر على وجه ماري إذ صعدت هي أيضاً إلى القارب ظل من الشك فقد كان القارب صغيراً وواضح أنه مشحون فوق طاقته. كان رجال إكيني محاربين وفلاحين وليسوا رجال نهر. ورغم شكوكها إلا إنها صلت ثم أمرت بدفع القارب إلى عرض النهر.

لم يكد القارب يطفو مسافة تقترب من عشرة أقدام من الشاطئ عندما اتكأ عدد من الرجال على الحافة اليمنى من القارب ليودعوا عائلاتهم وأسفرت هذه الحركة - التي كانت أكثر من قدرة القارب المشحون - عن استدارته ثم غطسه في الماء. ولحسن الحظ أن الماء كان لا يغطي أكثر من صدر الإنسان. فأمرت ماري الرجال أن ينقذوا البضائع التجارية ويحملوها إلى الشاطئ.

حمل الرئيس إديم سلة من ليف النخيل مملوءة بخيوط الغزل وألقاها على حافة الماء وهو يقول لـ ماري: "قلت لكم يجب ألا نذهب إن آلهة النهر تحاول قتلنا وهذه علامة حتى لا نحاول

مرة أخرى وإلا فإنهم سينجحون ونموت نحن." ردت ماري قائلة: "هراء" ثم أخذت تعقد أطراف ثوبها لتخرج منه الماء ومضت تقول: "لم تكن هذه أية آلهة، بل إن القارب كان صغيراً وبه الكثير جداً من الشحنات. أعطوني قارباً أكبر." فتح الرئيس فمه ليقول المزيد ثم عاد فأغلقه، وقد تحقق - ولا شك - أنه من العبث الجدل مع ماري.

وسرعان ما أحضر قارب أكبر وتم تعبئته ببضائع القرية التجارية فيه، وكان على ماري أن تطارد بعضاً من الرجال. من ضمنهم الرئيس إديم الذي كان قد اختبأ خلف شجرة قريبة، وسحبت الرجال إلى القارب وأجلستهم وأخبرتهم أن يبقوا حيث هم. فعل الرجال كما أخبروا، وهذه المرة تم دفع القارب إلى عرض النهر ولم يغرق. وبدأ الرجال يجذفون في حركة إيقاعية وانزلق القارب بعيداً.

سارت الجماعة في رحلتها لمدة حوالي نصف ساعة عندما لمحت ماري لمعان سيوف بين براميل زيت النخيل، وتنهدت بعمق. لقد تم تحذير الرجال ألا يحضروا معهم أسلحة، ولكن من الذي يستطيع إلقاء اللوم عليهم بسبب محاولتهم؟ فقد كان السبب الوحيد الذي يخرجون من أجله خارج منطقهم هو الذهاب في جماعات مغيرة .. وفكرت ماري للحظة، فلو أنها أظهرت

غضبها من الرجال لإحضارهم أسلحتهم فسوف يُخرجون وقد يصرون على العودة إلى إكينجي ولقد كانت الرحلة هامة جداً بحيث لا يمكن السماح بحدوث هذا، لذا فإن ماري قبضت على السيوف - أثناء إنشغال الرجال بأحد أفراس النهر على الشاطئ - وألقت بها في مياه النهر .. وظلت تنتظر أي رد فعل من الرجال ولكن لم يصدر منهم شيء علماً بأنها كانت متأكدة أن صوت سقوط الأسلحة في الماء لابد قد جعلهم يعرفون ما فعلته. وبدلاً من ذلك لم تصدر من أيّ منهم كلمة واحدة عن الأسلحة. وكأنه لم تكن هناك أسلحة من قبل.

كانت الرحلة ناجحة جداً في جريك تاون من البداية، فقد رحب الملك أيو بالرجال القادمين من قرية إكينجي كما لو كانوا أخوة قد طال غيابهم. أقام لهم ولائم وقادهم في جولة لمدينته كما ساعدهم أيضاً في مقايضة سلعهم بأشياء مفيدة. أصرت ماري على عدم مقايضتها بالروم أو الجين أو الأسلحة.

دعا هوج جولدي صديق ماري من المرسلين، الرجال وماري إلى خدمة مسيحية تحدث فيها الملك أيو نفسه من الكتاب المقدس عن (إله السلام).

مكثت الفرقة ثلاثة أيام في جريك تاون وقبل أن يتركوها عاندين إلى إكينجي تواعد الملك أيو والرئيس إديم وتعهدا

لبعضهما البعض بعهد مخلص، فوافق الملك أيو على إرسال رجال إلى أعلى النهر ليتاجروا مع شعب إكينجي وإفاكو بل ووعد بإقراض القرويين عدداً من قواربه الكبيرة للمدة التي يريدونها لتذهب إلى أسفل النهر وتتاجر في جريك تاون. وفي المقابل وعد الرئيس إديم بوضع حد لفرق الإغارة التي كانت تتهب المزارع في منطقة كالابار ووعد ألا يهاجموا رجال الإفيك الذين كانوا يسافرون إلى مسافات أبعد في الداخل.

لقد أنجزت ماري ما كان يبدو لها مستحيلًا منذ عامين عندما غامرت لأول مرة بالدخول إلى مقاطعة أوكويونج. فقد بدأ الرؤساء الآن يفتحون مناطقهم ويبرمون المعاهدات معاً كما بدأوا يتقنون ببعضهم البعض.

استقبل الرجال عند وصولهم عاندين إلى إكينجي استقبلاً حماسياً كما لو كانوا قد عادوا من الموت إلى الحياة. وقد كان ذلك يبدو كما لو كان حقيقياً فعلاً في نظر الكثيرين من أهل إكينجي. امتلأ الليل بالغناء والترنيم والصلاة والعزف على الصاجات التي جاعوا بها من جريك تاون وأخذوا يقصون القصص عن بيت الملك أيو المذهل.

وقام المطبلون بإرسال الأخبار عن طريق الطبول عن المعاهدة الجديدة مع القبائل الساحلية، كانت الرسالة يمكن أن

تصل إلى مدى سبعة أميال. وكما هي العادة كان يمكن أن يقوم طبالون آخرون بإعادة إرسالها إلى مناطق أبعد داخل الغابة .. وأكدت (ما إيمي) لـ ماري أن كل القبائل الموجودة في حدود مائتي ميل من إكينجي سوف يسمعون هذه الأخبار.

تمتعت ماري بمزيد من الاحترام وسط أهل مقاطعة أوكويونج. وبدأ الرئيس إديم يسألها رأيها في المزيد من الأمور. وأرسل لها رؤساء من قرى أخرى يطلبون منها حل مشاكلهم.

والآن إذ أصبحت قوارب الملك أيو تسافر بانتظام بين إكينجي وجريك تاون فقد انتهزت ماري الفرصة لزيارة باقي الإرساليات في أسفل النهر وخاصة بعد أن تركها تشارلز أوفنز ليساعد مراكز مرسلية أخرى، فبعد سفره شعرت ماري أنها حقاً وحيدة لأول مرة فقد افتقدت الترانيم الاسكتلندية واستعادت الذكريات مع تشارلز عن الحياة هناك في اسكتلندا.

وجاء مدد جديد يسمى تشارلز موريسون كان قد التحق بالعاملين في ديوك تاون وكان شاباً حاراً في الرابعة والعشرين من عمره، أحب قراءة وكتابة الشعر. وقد أرسل إلى أفريقيا ليعلم الأفارقة كيف يكونون هم أنفسهم معلمين. أحببت ماري، شارلز موريسون منذ اللحظة الأولى لمقابلته كما أنه أحبها هو أيضاً.

وعلى مدى السنة التالية قامت ماري بالعديد من الرحلات إلى ديوك تاون لزيارة تشارلز موريسون كما جاء تشارلز إلى إكينجي ليمرض ماري عندما مرضت بنوبة جديدة من الملاريا.. وخلال تلك الرحلة الطويلة وقع الإثنان في حب بعضهما البعض رغم أن ماري كان من الصعب عليها تصديق ذلك، لأنها كانت في سن يكفي لأن تكون والدته. ومع ذلك فإنه عند حلول وقت عودة ماري إلى اسكتلندا في نهاية عام ١٨٩٠ لإجازتها الثالثة، كان تشارلز موريسون قد تقدم إليها طالباً الزواج منها .. وافقت ماري بشرط واحد، وهو أن يرافقها إلى إكينجي فمهما حدث فإن عملها وسط الشعب هناك لا يجب أن يتوقف.

وعند العودة إلى اسكتلندا تقدمت ماري بطلب إلى مجلس إدارة الأرسالية للسماح لها بالزواج من تشارلز موريسون والسماح له بالانتقال إلى إكينجي معها .. لم يوافق مجلس إدارة الإرسالية على طلبها فقد كان تشارلز موريسون رجلاً راقى التعليم وكانت ديوك تاون في حاجة إليه ليدرب المدرسين ولو أرادت ماري أن تتزوج فقد أخبرت أن عليها أن تنتقل هي إلى ديوك تاون فالزوجة هي التي تذهب إلى موطن عمل زوجها وليس العكس. وقد تسبب هذا الرد في خلق ورطة خطيرة لـ

ماري. لقد كان عملها يأتي دائماً أولاً، وقد اعتقدت أن الله قد قادها إلى إكينجي. فهل كان من حقها أن تغير مسار دعوتها لمجرد أن تستطيع الزواج؟

وبعد المصارعة مع السؤال لمدة تزيد عن الشهر، انتهت ماري إلى أنها تحتاج إلى البقاء مع شعب إكينجي الأفريقي. لقد وثق الشعب بها ولازال هناك الكثير من العمل للقيام به بينهم. وعليه فقد قامت ماري بإلغاء خطبتها.

وإذ أصبحت الخطوبة خلف ظهرها. ألقت ماري بنفسها في مشروعاتها الجديدة منذ وصول تشارلز أوفنز إلى إكينجي كانت ماري تتساءل لماذا لم يستطع الأهالي أن يتدربوا ليصبحوا نجارين أو رجال تجارة. فلقد كانوا حفاري خشب رائعين، فلو أعطوا الأدوات المناسبة وتعلموا كيف يستخدمونها فسيمكنهم القيام بأشياء كثيرة لأنفسهم. ولن يحتاج المرسلون فيما بعد أن يطلبوا نجارين من اسكتلندا ليصنعوا بضعة إطارات لأبواب ونوافذ.

لكن بينما بدت الفكرة لـ ماري معقولة وعادلة إلا أنها كانت فكرة غريبة تماماً بالنسبة لمجلس إدارة الإرسالية. فبالنسبة لما يختص بالمرسلين كان الأفارقة فقراء وعاجزون ويحتاجون أن يقوم الرجل الأبيض بعمل كل شيء لهم. فهل كانت ماري تعتقد

حقاً أن شعب القبائل قادرين على التعلم والتجارة؟ تساءلوا بهذه الأسئلة إلا أن ماري لم تكن لترد على تساؤلاتهم بالنفي. وتكلمت عن خطتها أينما استطاعت وكتبت الكثير من الرسائل إلى مجلس إدارة الإرسالية حتى كلت يداها. وفي النهاية ربحت فاقتنعت مجلس إدارة الإرسالية أنه سيكون من المفيد في تدريب الأفارقة إقامة مدرسة في كالابار لتعليم البالغين النجارة وبعض الحرف الأخرى.

وبحلول فبراير عام ١٨٩٢ كانت ماري تستعد للعودة إلى أفريقيا للمرة الرابعة وكانت تخشى رؤية تشارلز موريسون مرة أخرى رغم أنها كانت قد كتبت له فعلاً تقول أنها قد قررت ألا تتزوجه. وقد تبين فيما بعد أن قرار ماري بالبقاء في منطقة أوكويونج أثبت أنه كان القرار الصحيح في وقت حرج. ففي خلال العام الذي قضته ماري في اسكتلندا حدثت تغييرات ضخمة في كالابار كانت قد قرأت عن الكثير منها في الصحف، فبعد أن سافرت ماري إلى اسكتلندا تم تعيين قنصل بريطاني جديد لمنطقة ساحل النيجر التي كانت كالابار جزءاً منها. وأعطى القنصل الجديد السيد كلود ماكدونالد عملية إحضار القانون البريطاني والنظام إلى المنطقة الواقعة بين كالابار وكروس ريفر الأمر الذي لم يكن قد جرى محاولته من قبل.

كانت الأراضي الداخلية دائماً شديدة الخطورة لم يدخلها وقد ظل البريطانيون دائماً ملتصقين بالساحل.

وما لم تعرفه ماري أنه في أثناء غيابها كان السيد كلود ماكdonald يحاول تحديد أفضل طريقة لتوصيل القانون البريطاني إلى المنطقة. وكلما سأل شخصاً عن رأيه في الموضوع كان الرد دائماً واحداً "أنت في حاجة إلى ماري سليسور".

تلعثمت ماري وهي واقفة أمام السيد كلود ماكdonald بعد وصولها إلى كالابار بقليل وقالت: "لكن هذا غير ممكن، أعني أشكرك على هذا العرض لكن ليست هناك طريقة لأستطيع أن أكون نائبة للقنصل وتمثيلك في إكينجي فأنا مرسلة ولست سياسية. وهناك بالفعل ما يكفي من الأعمال هناك لتشغيل مائة مرسل، وأنا امرأة وحيدة وأنت تستطيع بالتأكيد أن ترى ذلك".

تحدثت ماري والسيد كلود في الموضوع خلال فترة ما بعد الظهر وبدايات المساء. وحاول القنصل أن يكسب قبول ماري. وأخيراً غيرت ماري رأيها عندما أخبرها السيد كلود ماكdonald أنه لابد من إرسال شخص أبيض إلى منطقة أوكويونج لكي يوصل القانون والنظام فإذا لم توافق ماري أن تكون هي ذلك الشخص فلن يكون أمامه خيار إلا أن يرسل في طلب ممثل له من إنجلترا .. وكانت فكرة إعطاء القيادة لأحد الشباب

المتخرجين توا من إحدى الأكاديميات البريطانية - بدون أن يكون عارفاً باللغة المحلية أو العادات - لينفذ القانون البريطاني بالقوة في مقاطعة أوكويونج سبباً في ترويع ماري فسوف تضحي المقاطعة كلها في ثورة وهياج خلال أسابيع قليلة، ولا شك أنه سيكون هناك الكثير من سفك الدماء. ولما كانت ماري لا تستطيع أن تدع هذا يحدث، فقد وافقت أن تصبح نائبة للقنصل مما يجعلها تصبح القاضي والمحلفين في كل الأمور القضائية في مقاطعة أوكويونج. وسيصبح لديها الآن أكثر من أي وقت مضى الكثير الذي عليها عمله.

وعندما شقت ماري طريقها إلى أعلى النهر أخيراً، كانت هناك جماهير من الشعب تنتظرها لتحيتها فلقد افتقدوا أهمهم البيضاء. وكانت (ما إيمي) بصفة خاصة سعيدة برؤية ماري ثانية وأن تعلم بلقبها الرسمي الجديد وعملت - أكثر من كل وقت مضى - على مساعدة ماري. وبينما لم تكن تجرؤ أن تحذرهما علانية في كل مرة، فإنها كانت ترسل إليها إحدى جارياتها ومعها زجاجة دواء معينة بالذات مع طلب بملئها. وكانت تلك هي العلامة لتحذير ماري من المتاعب القادمة. وكانت ماري عندما تستلم العلامة تجمع مهماتها وترتب أمور أطفالها ومن سيعتني بهم جميعاً قبل أن يصل إليها طلب

المساعدة. وكان الناس دائماً يذهلون بسبب كيفية شعورها بالمتاعب قبل حدوثها ولم يشكوا قط ولو للحظة أن (ما إيمي) كانت تعمل معها.

وفي أغلب الأحيان كانت ماري تُستدعى لعقد الإتفاقات بين القبائل وكان عليها أحياناً أن تسافر لمدة يوم أو أكثر لكي تصل إليهم وهي قلقة أثناء سفرها من أن يقتل بعضهم بعضاً قبل وصولها. وفي محاولتها تجنب هذا الاحتمال، كانت ترسل إحدى جوارى (ما إيمي) وهي تجري عبر الغابة أمامها وفي يدها قطعة من الورق عليها ختم بالشمع الأحمر بخاتم ماري الرسمي - ختم نائبة القنصل. ولم يكن يهم كثيراً ما كانت تكتبه ماري على الورقة طالما أن أحداً لن يستطيع قراءته. لكن الورقة نفسها كانت تبدو مؤثرة وكثيراً ما كانت توقف الطرفين عن القتال إلى أن تصل ماري.

وكان الجلوس والحديث بدلاً من قتل أحدهم الآخر، شيئاً جديداً بالنسبة لشعب مقاطعة أوكويونج. وقد علمت ماري الشعب بصبر كيف يقدمون حالاتهم إليها. فكانت تجلس في ظل شجرة كابوك وتخرج شغل الإبرة الخاص بها، ثم وهي تخبط الأبر معاً كانت تسأل إحدى الجماعتين لكي تحدد المشكلة ثم تسمح للمجموعة المضادة أن تقول ما تفكر فيه. وقد يستمر ذلك

ويتواصل لمدة تصل إحياناً إلى ست وثلاثين ساعة متصلة .. وأثناء قيام الرؤساء بتكرار نفس المعلومات مرة ومرات راجين أن يؤثروا في ماري. وأخيراً عندما كانت تشعر أن كل واحد قد أنهك كثيراً بكثرة الكلام. كانت ماري تطلب من كل طرف أن يلخص دعواه وبعدها تعلن قرارها.

وبعد أن يكون القرار قد صدر يأتي الدور الذي كانت ماري تمقته. كان رؤساء كل من الطرفين يوافق على حكم ماري بأن يقطعاً قسماً معاً. ولإتمام ذلك كان الرجلان يتصافحان بينما يقوم شخص ثالث بخدش ظهر أيديهما بسكين ثم يقوم ذلك الطرف الثالث برش الملح والفلفل والقمح على الجروح الدامية وبعدها كان يقوم الرئيسان بإنشاد قسم بالموافقة على الإلتزام بقرار ماري وجعله نهائياً ثم يتبادلان لحس جروح بعضهما البعض.

لم تكن ماري تستطيع إحتمال المراقبة أثناء حلف اليمين لكنها لم تمنع هذه الممارسة - رغم أنها كانت تملك القوة لعمل ذلك - بل قررت أنه من الأفضل السماح للأهالي ببعض من عاداتهم القديمة وطرقهم الخاصة تلك التي ليس لها ضرر حقيقي لأي شخص. وشيئاً فشيئاً عملت ماري على تغيير الممارسات القاسية في مقاطعة أوكويونج. كانت بعض التغييرات تستغرق وقتاً أكبر من غيرها لكنها لم تستسلم قط، وبحلول عام ١٨٩٦

كان هناك قانون أساسي ونظام في كل مكان في المقاطعة، ونتيجة لذلك استطاعت ماري أن تكتب تقريراً للسيد كلود ماكدونالد تذكر فيه أن القرى التي كانت تغير على غيرها لأسر العبيد قد توقفت. ولم يعد هناك المزيد من الضحايا البشرية في الجنازات وأن نساء قليات كن يسكن والكثير من الرجال أصبحوا منتبهين وغير سكارى أغلب الوقت وأن التوائم أيضاً لم يكونوا يقتلون (رغم أن كان الكثيرون منهم لا يزالون يتعرضون للإهمال حتى الموت) وأنه يُسمح لأمهات التوائم في أغلب الأحيان للعيش.

ومع نسخة واحدة من الكتاب المقدس وشجاعة لا تصدق، قامت ماري سليسور بتغيير العادات القاسية وتنقيف مقاطعة بأسرها. لقد أصبحت الآن في الثامنة والأربعين من عمرها وقد ظلت على قيد الحياة في كالابار طيلة عشرين عاماً وهي مدة أطول من المدة التي استطاع أي إنسان أن يأمل فيها أو يتنبأ بها.

ابتدأ كثير من المرسلين يحثون ماري على العودة إلى ديوك تاون لتعيش هناك. خاصة بعد أن تسلمت أخباراً تفيد أن تشارلز موريسون قد مات بمرض غامض أثناء زيارة إلى أمريكا. كما أراد أصدقاءها لها أن تعطي عناية أفضل لصحتها وراحة أكثر

لجسدها - الأمر الذي ما كانت تستطيع القيام به - لكن ماري لم تكن قد انتهت بعد من عملها المرسل في فقد كان الناس من إكينجي لا يزالون في حاجة إليها وهي لن تتركهم. وكان حرياً بها أيضاً أن تخور لو أنها علمت بما كان ينتظرها.

* * * * *

الفصل السابع عشر

فريدة من نوعها

في عام ١٨٩٦ كان على ماري سليسور أن تتحرك وليس ذلك لأنها أرادت أن تنتقل بل لأن أغلب سكان إكينجي قد انتقلوا منها، فقد بدأ القرويون يستبدلوه مع القبائل الساحلية. ولقد استهلكت هذه العملية المواد المغذية للتربة حول القرية ولم تعد التربة تنتج محاصيل وفيرة، ولاحظ أهالي القرية أن المزارع الصغيرة على بعد عشرة أميال في أعلى النهر تنتج محاصيل أكبر وأصح من محاصيلهم. فأنشأ عدد كبير منهم، بينهم (ما يمي) قرية جديدة أطلقوا عليها اسم (أكباب) في مكان لم تكن التربة فيه قد استهلكت وكانت أقرب إلى كروس ريفر، مما جعل نقل البضائع للرحلة عبر النهر أسهل كثيراً من ذي قبل.

انتقلت ماري إلى القرية الجديدة وإن كانت قد أبقت على بيت الإرسالية في إكينجي وكانت تعود إليه بانتظام لمساعدة الأسر القليلة والرئيس إديم الذي اختار أن يبقى.

وبعد قليل من انتقالها إلى (أكباب) واستقرارها هناك أصابت المنطقة كارثة، فلقد انتقل إليها مرض من أعالي النهر بواسطة

التجار. تأوهت ماري عندما سمعت بأعراضه، درجة حرارة عالية يتبعها حكة قوية وسريعة تتحول إلى بقع حمراء لامعة لا يمكن أن تكون إلا شيء واحد - وهو الجدري. وعملت ماري كل ما تستطيع، وكان قد تم إنتاج مصل ضد المرض لكن كان من الصعب الحصول على كميات كبيرة منه كما أنه كان قادراً على قتل الشخص الذي يتأوله. ومع ذلك أرسلت ماري إلى ديوك تاون للحصول على كل ما يمكنها الحصول عليه من المصل الذي يمكن للناس أن يستغنوا عنه .. وعملت على توزيعه على أكبر عدد ممكن من الناس.

كانت ماري تتسابق بين أكباب وأكينجي وأيفاكو محاولة مساعدة الناس ولكن كان هناك القليل الذي تستطيع القيام به، فرغم المصل ظلت الجثث تتراكم بالعشرات أولاً ثم بالعشرينات ثم بالمئات، وكان هناك الكثير جداً من الجثث التي يجب دفنها. راقبت ماري الموقف وهي عاجزة إذ مات بعض من أقدم وأعز أصدقائها وكان أحدهم الرئيس إديم. الرجل الذي كان قد خيب أملها ثم ساعدها عندما جاءت إلى إكينجي أولاً. وعندما مات جلست ماري بجوار جسده وبكت ولم تستطع احتمال تركه لكي تأكله الفئران والحيوانات الأخرى، ورغم إرهاقها الشديد فقد شددت نفسها إلى مدخل الباب الخاص بكوخه والتقطت إحدى

عصي الحفر وحفرت مقبرة قليلة العمق ودحرجت فيها جثمان الرئيس ثم أخذت تبحث في كوخ الرئيس عن شيء ربما كان يتمنى أن يدفن معه. فاختارت سيفه وبندقيته وسوطاً ووضعتهم معه ثم غطت الجسد بالتراب وتركت الكوخ، ولم يتبق في إكينجي أحد ليحزن على رئيسها المتوفي.

ولم تستطع ماري إلا أن تفكر - وهي سائرة خلال دروب القرية المهجورة - فيما كان يعنيه موت رئيس وقت أن وصلت إلى إكينجي لأول مرة منذ إثني عشر عاماً مضت. كانت فرق السكارى في الطريق والطبيب الساحر سيبعث في طلبه ليعلن عن إسم المسئول عن موته وستقوم فرق المطبلين بدق الطبول لنشر الخبر عبر منطقة أوكويونج. وهنا استراحت نفسية ماري لحقيقة أن كل هذه الممارسات لم تعد تحدث الآن. واستدارت من القرية إلى الطريق المؤدي إلى أكباب وقد فاضت ذكريات أصدقائها الموتى في عقلها وهي تسير متعبة في الطريق إلى بيتها.

وأخيراً وصل الوباء إلى نهايته. ورغم أن ماري لم تصب بالجدري هي نفسها إلا أنها أصبحت مرهقة جسدياً وعاطفياً من الوباء - مرهقة لدرجة أنها - في الحقيقة - لم تبد اعتراضاتها الحادة المعتادة عندما طلب منها مجلس إدارة الإرسالية العودة

إلى اسكتلندا في إجازة .. فأخذت معها أربعة من بناتها - جاني ذات الخمسة عشر سنة، وماري ذات الخمس سنوات، و(أليس) ذات الثلاث سنوات، و(ماجى) البالغة سنة واحدة - فلم تكن لتفكر في ترك كالابار بدونهم رغم أنه لم يكن لأي واحدة منها قطعة ثياب محترمة لتلبسها. وكان صندوق قد وصل إلى الإرسالية حديثاً من اسكتلندا ونتيجة لذلك سافرت ماري والأطفال إلى اسكتلندا وهن يرتدين ملابس مستعملة كان قد تم التبرع بها لفقراء الأفارقة العرايا. فما كان يمكن لـ ماري أن تهتم بمظهرها أقل مما اهتمت. وكان ذلك جيداً لأنها وجدت من الصعب أن ترتدي أحذية فقد أصبحت قدمها غليظتان وخشنتان بسبب سيرها حافية القدمين كل تلك المدة الطويلة، ولم تكن تنتظر بلطف إلى حشرهما في أحذية أنيقة.

كانت الأجازة نفسها صعبة بالنسبة لـ ماري لأنها كانت تظهر في وسط الجمهور ومعها أربع بنات أفريقيات يسرن في ذيلها في كل مكان فكثيراً ما كان البعض يتعرفون عليها. وعند ذلك كانت تتعرض للكثير من الأسئلة. كما أن مجلس إدارة الإرساليات قد نظم استقبالا ضخماً لها باعتبارها أشهر مرسلاتهم. وفي جلاسجو وقفت ماري لمدة تزيد عن الساعة وهي تصافح الناس بعد خروجهم من الاستقبال، وقد أرهقت كل

هذه المظاهر ماري التي كانت تتوق للعودة مرة أخرى وسط أهلهم في كالابار. ومن جهة أخرى كانت لجنة الإرساليات الأجنبية قلقة عليها بسبب صحتها الضعيفة، وأرادت لها أن تبقى في اسكتلندا مرة أطول. إلا أن ماري بطريقها العنيدة المعتادة قالت للجنة: "إذا لم ترسلوني عائدة إلى هناك فسوف أسبح في البحر عائدة." ومن المحتمل أنها كانت تعني ذلك فعلاً. وعليه فقد كسبت الجولة، وفي ديسمبر عام ١٨٩٨ كانت على ظهر السفينة مرة أخرى متجهة إلى كالابار.

وعندما وصلت عائدة إلى ديوك تاون قبولت ماري باستقبالا حاراً وإن كان غير سعيد. فقد حدثت أحداث محزنة كثيرة أثناء تواجدها في اسكتلندا. فعندما سافرت كانت إرسالية كالابار ولأول مرة قد زودت كل محطات الإرسالية أعلى النهر بمرسلين. فقد كان هناك ثمانية مرسلين جدد قد أرسلوا إلى هناك لهذا الغرض لكن بعد ستة أشهر كان خمسة من المرسلين الجدد قد ماتوا بالأمراض وإثنان أصبحا مرضى بدرجة لم تمكنهم من الاستمرار، فعادا إلى اسكتلندا. وقد تسبب موت المرسلين في وأد آمال الإرسالية في التوسع إلى الداخل. ولم تكن هناك طريقة تستطيع بها الإرسالية إرسال المزيد من المرسلين إلى موت محقق. على أن ماري قد ركزت أنظارها على قبيلة (أرو) وهي

أشرس القبائل من آكلي لحوم البشر في كالابار. لكنها بسبب الوضع في ديوك تاون لم تناقش خطتها مع أحد هناك. إذ كان من المنتظر أن يمنعوها من الذهاب.

في ديسمبر ١٨٩٩ بعد سنة من عودة ماري إلى كالابار تزوجت جاني إينة ماري بالتبني، من شاب كان أحد ألمع تلاميذ ماري على أن الزواج ترزع بعد وفاة طفلهما الأول، فقد لام زوج جاني نفسه على الوفاة مخبراً نفسه أن الوفاة حدثت لأنه تزوج من إحدى التوائم. فترك جاني التي عادت إلى الحياة مع ماري التي رحبت بعودتها وقد فرحت فرح مضاعف للمساعدة الإضافية، فلقد مرضت بالروماتيزم وهو مرض يسبب العجز خاصة إذا أضيف إلى النوبات المتكررة لمرض الملاريا مما يعني أنها كثيراً ما تكون عاجزة عن العناية بالأطفال الذين أرسلوا إليها لحمايتهم. كان لديها عدد كبير من الصناديق الخشبية الصغيرة التي كانت تستعمل كأماكن لنوم الأطفال. وحتى في أشد لحظات مرضها، كانت ماري تنام في فراشها وهي تؤرجح الصناديق من جانب إلى آخر لتريح الأطفال. ولكن غالبية الأطفال - للأسف - ماتوا، إذ كانوا عادة مرضى عند إرسالهم إليها. ومع ذلك كانت ماري وجاني تعتنيان بهم، وكانت ماري تعتقد أنه من المهم أن تظهر للأفارقة أن أي حياة

واحدة حتى - ولو كانت حياة طفل ضئيل ليس هناك سوى أمل ضئيل في بقائه على قيد الحياة - كانت ذات أهمية لدى الله. كما أنه في ديسمبر ١٨٩٩ بدأت سلسلة أحداث كان لابد أن تؤدي في النهاية إلى فتح الطريق أمام ماري للعمل بين شعب قبيلة (الأرو) الذين كانوا يستخدمون السحر ليصبحوا القبيلة الأقوى والأكثر هيبة في منطقتهم. ولم يعرف أحد من الأوربيون كيف كان ذلك السحر يعمل بالضبط على الأقل حتى عيد الكريسماس عام ١٨٩٩.

في عيد الميلاد هذا تم جر حوالي مائة أفريقي مريض وفي حالة الموت أنفسهم إلى معسكر للجيش البريطاني وإنهاروا هناك، وكانت القصة التي قصوها قصة مرعبة - قالوا أن حوالي ثمانمائة منهم - من الرجال والنساء والأطفال - ذهبوا إلى مدينة (الأروكوكو) في رحلة حج دينية إذ كان شعب الأرو قد أقنعهم أن طبيباً ساحراً عظيماً وحكيماً كان يعيش هناك .. وكان ذلك على أي حال فحاً حيث هوجم الحجاج عندما وصلوا وأخذ بعضهم لكي يطبخوا ويؤكلوا وإن كان معظمهم قد تم بيعهم كعبيد إلى قبائل أبعد في الداخل من البلاد. وبالكاد استطاع المائة شخص الباقين أن يهربوا ليخبروا بالقصة.

وعندما سمعت الفرق العسكرية البريطانية بالقصة ثار

غضبهم وأرسلوا الأخبار إلى المركز الحربي الرئيسي في لندن وتقرر أخيراً أنه لا بد أن تستخدم بريطانيا العظمى القوة لتبني لشعب الأرو أنهم لن يستطيعوا بعد ذلك القيام بمثل هذه الأفعال. وفي أغسطس ١٩٠١ تجمع مائة وخمسون ضابطاً بريطانياً مع بضعة آلاف من الجنود الأفارقة في ديوك تاون للقيام بهجوم على قبيلة الأرو.. وذهبت ماري لرؤيتهم قبل رحيلهم لأن جميع المرسلين في المنطقة كان قد صدرت إليهم الأوامر للعودة إلى ديوك تاون فقد كانت الحكومة البريطانية قلقة من أن تقوم قبيلة الأرو باختطاف المرسلين الموجودين في مناطق نائية وتستخدمهم كرهائن.

لم تسعد ماري قط بكونها قد حُرمت وأبعدت عن شعبها لكنها - للمرة الأولى - لم تستطع أن تفعل شيئاً بهذا الخصوص. وأخيراً سارت الجيوش - في نوفمبر - إلى الداخل من البلاد - وقُتل المئات من الجانبين وبعد أيام من القتال استسلم القلائل المتبقين من محاربي الأرو، على أن هذا لم يكن يعني استعادة السلام إلى المنطقة. لقد كان الأرو هم القوة المسيطرة في المنطقة لمدة طويلة لدرجة أن هزيمتهم خلقت فوضى، فقد بدأت مختلف القبائل الأخرى تحارب بعضها للحصول على قمة السيطرة والقوة وتم تحريم دخول الأوروبيون

إلى المنطقة فيما عدا نائب القنصل البريطاني السيد (رالف مور) وقواته.

كانت ماري قلقة وظلت تصلي لما يمكن أن يحدث لشعب الأرو الذين أرادت - بلا أمل - أن تصل إليهم برسالة الإنجيل وتريهم طريقة أفضل للحياة. وفي نفس الوقت وصلت جانبيت رايت إلى كالابار لتساعد ماري. كانت جانبيت هي إحدى شابتين كانت ماري قد تحدثت إليهما في (فالكيرك) أثناء إجازتها الأولى وكانت قد طلبت من ماري أن تراسلها - الأمر الذي فعلته ماري وها هي (جانبيت) الآن تقرر أن تصبح مرسلة. وكانت ماري عظيمة الثقة بأن جانبيت ستكون مساعدة ذات شأن في عملها. كانت جانبيت بصفة خاصة، بارعة في تعلم لغات الإفيك والباننو وسرعان ما أصبحت تتكلم بهما بطلاقة.

كان على ماري أن تنتظر حتى يونيو ١٩٠٣ حتى تصبح أخيراً مندمجة مع الأرو. فكانت تسافر في النهر من ديوك تاون حتى أكباب، وكان أحد المسافرين معها هو الكولونيل (مونتانارو) - قائد الحملة على الأرو. وكان في طريقة للعودة إلى منطقة الأرو واشتبك هو وماري في مناقشة وسرعان ما أخبرها أن الجيوش البريطانية لا تستطيع إيقاف الحرب والقتال في المنطقة. وقبل أن يصل إلى الشاطئ قرب أكباب خطرت

للكولونيل (مونتانارو) فكرة مذهلة، وتوسل إلى ماري أن تستمر في الرحلة إلى أعلى النهر معه حتى تستطيع أن تتحدث مع رؤساء الأرو وبالطبع وافقت ماري دون لحظة تردد واحدة. فذلك كانت الفرصة التي صلت من أجلها.

وبالتأكيد فإن ثقة الكولونيل (مونتانارو) في ماري كانت في محلها، فاستطاعت ماري أن تقود مختلف الأطراف إلى اتفاق حول معاهدة سلام. وقبل رحليها ببضعة أيام استلمت دعوة مفتوحة للعودة وتأسيس مدرسة لتعليم قبيلة الأرو القراءة والكتابة (الكتاب).

علمت ماري إنه عليها أن تعمل بكل سرعة بخصوص هذه العودة، كانت الغارة ضد الأرو قد حطمت أرواح القبائل داخل البلاد. ولأول مرة أصبح البريطانيون قادرين على الوصول للداخل بدون مقاومة. فخططوا لإنشاء الطرق والجسور والقنوات والأرصفة في كل المنطقة وشعرت ماري أن عليها أن تصل إلى قبائل الداخل برسالة الإنجيل قبل أن يحتاج المنطقة الجنود والموظفين الحكوميين والتجار.

بدأت ماري في يوليو ١٩٠٤ - بتصريح من الحكومة البريطانية - المسح الأول للقبائل الداخلية في كالابار. وبعد ذلك بقليل مرضت جانبتي رايت التي كانت تقوم بالعمل في أكباب

وكان عليها أن تعود إلى اسكتلندا وتم إحلال مرسلتان جديدتان قد وصلتا من اسكتلندا. صادفت المرأتان صعوبة في الاعتياد على الحياة وكتبتا إلى اسكتلندا تشكوان أنه لا يمكن لأحد أن يعيش في مثل هذه الظروف الصعبة، فالفران ترتع حول بيت الإرسالية وكان من المستحيل الحصول على فرصة نوم ليلي منتظم، كما كان الطعام مملاً وبلا طعم، ومضت القائمة في التوسع .. ونتيجة لذلك استدعيت المرسلتان إلى ديوك تاون وتم إعلان المحطة في أكباب أنها بدائية جداً بالنسبة للناس.

وبالطبع علم الناس أن ماري سليسور كانت قد أفلحت هناك، لكن مجلس إدارة الإرسالية قد انتهى إلى أن ماري يمكن أن تغلح حيث لا يستطيع المرسلون الآخرون حتى أن يبقوا على قيد الحياة. لقد كانت ماري فريدة من نوعها.

وطوال السنوات العشر التالية، ساعدت ماري مع إينتها جاني في العمل وسط القبائل الداخلية. وأدارت المرأتان دراسات للكتاب المقدس، وعالجتا المرضى، ساومتا وفافوضتا لإيقاف القتال بين القبائل وإنقاذ حياة التوائم. كما أن ماري تكلمت أيضاً عن معاملة النساء والعبيد، وكان من الممكن أن يقتل أي شخص آخر لتحديه عادات القبائل وسلطات الرؤساء بالطريقة التي قامت بها ماري - لكن كان هناك شيء مختلف في ماري -

إمرأة بيضاء وحيدة لا تحمل سلاحاً وتسير بدون حراسة وهي حافية القدمين، تجوب البلاد طويلاً وعرضاً وتتحدث، وحيثما ذهبت كانت ترنم وتتحدث عن السلام بلغات الشعوب الداخلية مثلها مثل أهل البلاد. كما أنها علّمت الشعب القراءة والكتابة وكانت كأنها قد أرسلت لمساعدة القبائل خلال تلك الأزمنة الصعبة.

كانت عجالات الإرساليات الأجنبية في اسكتلندا تسير ببطء وكانت تسبقها ماري دائماً بعدة خطوات، وعلى أي حال فقد نظرت الإرسالية إلى عملها وتوصياتها بنظرة جادة. فعندما أوصت ماري بأن تصبح أحد الأماكن المسماة (أيتو) موقعاً جيداً لتشييد مستشفى للإرسالية، اتفق معها مجلس إدارة الإرسالية وتبرع أحد أصدقاء ماري القدامى في أدنبرة بالأموال لبناء المستشفى التي أطلق عليها (مستشفى ماري سليسور المرسلي)، مما كان له أثر سيء على ماري.

وما أن توافقت ماري مع فكرة وجود مستشفى بإسمها حتى طلب منها القائد العام البريطاني أن تتولى الدور الجديد الذي تم خلقه في المنطقة كنائبة لقنصل المحكمة الأهلية وكان هذا يعني أن تعود ماري مرة أخرى للمساعدة في حل المنازعات وإيقاف القتال. ورغم حقيقة أن ماري قد أصبحت أكبر سناً وأن صحتها

أخذت تسوء مع كل سنة تمر فإن القائد العام أقنعها أنها كانت - مرة أخرى - (الرجل) الوحيد المناسب للوظيفة. وافقت ماري على تولي المنصب خشية مما قد يحدث إذا هي لم توافق وتم إرسال شخص لا يفهم العادات المحلية إلى المنطقة بدلاً منها.

وبدأ البريطانيون - كما سبق أن وعدوا - في إنشاء الطرق عبر المنطقة ومع الطرق جاءت فرصة جديدة لـ ماري التي اكتشفت أنها يمكن أن تغطي مسافات أوسع كل يوم بركوب دراجة. وكان لديها دراجة أرسلت إليها من اسكتلندا وسرعان ما صارت تنطلق صاعدة ونازلة عبر الطرق الجديدة في المنطقة. ومع ذلك استمرت صحة ماري في التدهور وسرعان ما صارت تدفع دفعاً في عربة بدلاً من ركوب الدراجة.

وفي عام ١٩٠٨ أرسلت إحدى معضدات ماري مبلغ خمسين جنيهًا إليها مع تعليمات أن تقوم بصرفها على نفسها. لكن ماري ردت عليها بخطاب تقول فيه: "صديقتي العزيزة - أنا لست في حاجة إلى شيء فكل ما أحتاج إليه يتم توفيره لي دون أن أطلب." وما لم تكن المرأة تعلمه وهي في اسكتلندا إذ لم تكن هناك وسيلة لمعرفة، هو أن ماري سليسور لم يكن لديها فعلاً أية ممتلكات مادية، ولم تكن تريد شيئاً من تلك الممتلكات أيضاً. كانت ماري تقلق حول كيفية صرف النقود على شراء

كتاب مقدس جديد لها مفضلة أن تعطي كل قرش يصلها للمساعدة في إدارة الكنائس والمدارس التي أسستها.

في ساعات الصباح الأولى من يوم ١٣ يناير ١٩١٥. كانت ماري مستلقية وهي مريضة جداً في كوخ طيني صغير في قرية (يوز). كانت مريضة أكثر من مرة من قبل لكن هذه المرة كانت تختلف وقد علمت ماري أنها تموت.

وكذلك علمت جاني وبقية الأطفال الذين تجمعوا حولها ليرافقوها. وإذ مضى الليل ظلت ماري تدفع عنها غطاءها وتكافح لتنفس ثم وفي الساعات الأولى من الصباح استيقظت وقدم لها كوب من الماء فرفضته، وبدلاً من ذلك نطقت بضع كلمات بلغة الإيفيك: كانت تطلب من الله أن يطلقها حرة من الألم. وقد فعل، فبعد دقائق قليلة ماتت ماري.

وإذ صاح الديك أثناء زحف أشعة الشمس في الصباح على الأفق أرسل المطبلين في (يوز) الأخبار الحزينة (إن أمانا كلنا قد ماتت) وترددت الأنباء في كل المنطقة إذ تتابع المطبلون في إرسالها إلى القرى التالية.

وفي اليوم التالي أرسل صندوق جميل من الماهوجني من ديوك تاون ووضع فيه جسد ماري سليسور ذات السبعة والستين عاماً وحمل إلى أسفل النهر للمرة الأخيرة.

لم يكن هناك في ديوك تاون شخص لم يعرف بموت ماري. وعلى شرف ماري أغلقت كل المصالح الحكومية والمدارس ونُكست الأعلام واصطفت الشرطة على طول الطريق من الميناء إلى بيت الإرسالية.

كانت خدمة جنازة ماري مزدحمة بالناس من ثلاث مناطق قبلية في كالابار. الناس الذين أعطتهم ماري تسعة وثلاثين سنة من حياتها للوصول إليهم برسالة الإنجيل. وكانت حقيقة تجمعهم كلهم معاً في مكان واحد بدون قتال أو هجوم على بعضهم البعض. ربما كانت هي أعظم تحية لعمل ماري سليسور في المنطقة. وضع جثمان ماري ليستريح في مقبرة في بيت الإرسالية الكبير بجوار أجساد القس أندرسون وزوجته.

وأرسلت الكنيسة المشيخية المتحدة في اسكتلندا لوحة من الجرانيت الإسكتلندي لتوضع على قبر ماري. وعندما سمع تشارلز أوفنز النجار صديق ماري عن هذه اللوحة الحجرية قال بابتسامة: "سيحتاج الأمر إلى ما هو أكبر من ذلك لتبقى ماري سليسور التي أعرفها في مكانها." وكان على حق، فإن مثال العمل المرسلي الذي قامت به ماري ورغبتها في التضحية بكل شيء لتصل برسالة الإنجيل هي مثال مضيء لكل مسيحي يرغب في أن يترك أرض موطنه ليفعل مثلاً.

استمر العمل الذي كانت قد بدأت ماري وقامت به أربعة مرسلات غير متزوجات بالإضافة إلى جاني في المناطق الداخلية من كالابار وقد وجد الخمسة معاً أنه من الصعب ملاحقة عبء العمل الذي كانت تقوم به امرأة صغيرة حمراء الشعر عاملة محلج القطن من داندي.

* * * * *